مِن أدب

مَيّ زيادَة

دار عوّاد للطباعة والنشر

من أدب

مَيّ زيَادَة

مِن أدب

مَيّ زيَادَة

قدّم لها
سِيمون عوّاد

دار عوّاد للطباعة والنشر

١٩٨١

مقدّمة

بقلم سيمون عواد

أدب ميّ زيادة هو كأدب جورج إيليوت ، وجورج صاند ، ومدام دوستال ، بأناقته وأنوثته ، ناهيك بألوانه الحضارية التي نضحت من شخصيتها ذات الثقافات المنوعة . فقد قيّض لميّ ان تتقن تسع لغات هي : العربية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والألمانية ، والإيطالية ، والإسبانية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية . وقد ألحت الى هذا التنوّع في ثقافاتها الذي يرمز إلى اتساع حدود وطنها الذي هو وطن الانسان : « ... ولعلّ معرفتي لتسع لغاتٍ زادت في حدود وطنيتي ، وجعلتني أنظر الى العالم كأنه وطني الأكبر . ولعلّ أيضاً سياحتي في أوروبا قد زادت في نفسي هذه العقلية » .

من هنا انطلقت ميّ لتثبت أمام المجتمع الشرقي جدارة المرأة التي هي منه سواء في المقالات التي نشرت أو الخطابات والمحاضرات التي ألقت ، أو في منتداها الأدبي الذي حاورت

فيه وناقشت كبار أدباء عصرها : يعقوب صرّوف ، منصور فهمي ، عباس العقاد ، أنطون الجميّل ، شبلي الشميل ، أحمد شوقي ، مصطفى الرافعي ، ولي الدين يكن ، خليل مطران ، إسماعيل صبري ...

وقد جذبت أصداء اجتماعات هذا المنتدى اسماء لامعة كطه حسين فكتب عنه : « كان صالون مي ديمقراطياً ، أو قلْ إنه كان مفتوحاً لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية ، وأنا أذكر أني إنما اتصلت بصالون ميّ بعد أن نوقشت رسالتي في أبي العلاء . وشهدت ميّ هذه المناقشة ، وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التي أقامها لي الزملاء حينئذ ، وطلبتُ إلى استاذها وأستاذي لطفي السيد أن يظهرني في صالونها . وكذلك عرفتها في هذا الصالون ، وترددت عليها في أيام الثلاثاء الى أن سافرت الى أوروبا ... » .

إلا أن هذا النشاط الثقافي المميّز الذي طبع ميّ بطابع الفرادة ، لم يكن ليمنعها من الالتفات الى نشاطات بنات جنسها ، من هنا استهوتها الحركة النسائية وحملتها على الانضواء للسيدة هدى شعراوي ، فيما قامت به من حملات لتحرير المرأة ورفع مستواها . فقد كان تحرير المرأة قضية الثلث الأول من هذا القرن . لذلك نرى ان نشاطها الأدبي تمحور حول شؤون وقضايا اجتماعية خالصة كانت المرأة منه في الصميم .

ثم ان انتاجها كان بالنسبة الى عصرها غزيراً ، فقد أعطت ١٥ مؤلفاً خلال ثلاثين سنة ، أي بمعدل كتاب كل سنتين ، عدا نشاطها وأسفارها ومناقشاتها وخطبها التي لو قدّر لها الجمع لاتسعت لها مجلدات . وفيما يلي ثبت بآثارها المطبوعة :

١ — « أزاهير حلم » وهو مجموعة أشعار بالفرنسية .
٢ — « باحثة البادية » وهو بحث انتقادي عن السيدة ملك حفني ناصف .
٣ — « رجوع الموجة » وهو قصة مترجمة عن الفرنسية .
٤ — «ابتسامات ودموع» وهو قصة مترجمة عن الالمانية .
٥ — « سوانح فتاة » وهو مذكراتها .
٦ — « ظلمات وأشعة » .
٧ — « كلمات وإشارات » .
٨ — « الصحائف » وهو مختارات من مقالاتها .
٩ — « رسالة الأديب » الى الحياة العربية وهو محاضرة .
١٠ — « المساواة » .
١١ — « الحب في العذاب » وهو قصة عن الانكليزية .
١٢ — « غاية الحق » وهو محاضرة .
١٣ — « رسائل ميّ » وقد نشرتها السيدة مادلين أرقش .
١٤ — « بين الجزر والمدّ » .
١٥ — مخطوطات ، منها ثلاثون رسالة ، تراوح الواحدة منها بين صفحة واحدة وخمس وعشرين صفحة .

بقي أن نقول كلمة في هذا النتاج الذي أضفت عليه الحضارة الغربية في مطالعاتها طابعاً رومنطيقياً جاور الطابع الشرقي ، وان كان يومها الشرق في مرحلة الكبت ، ان هذا النتاج ظلّ بعيداً عن التمثّل بما أخذ ، لأن ميّ عرفت كيف تحافظ على عفويتها وبساطتها ، أو لنقل على شخصيتها بكل ما امتزج فيها من تناقضات واصطراعات عبرت عنها بصدق قلّ نظيره في بنات عصرها ، فجاء أدبها مصداقاً لها ولعصرها ايضاً .

سيمون عواد

نوافذ على حياة مي وأدبها

★ وُلدت ماري الياس زخور زيادة ، التي لقّبت نفسها «بمي» فيما بعد في ١١ شباط ١٨٨٦ ، وفي الناصرة . والدها الياس لبناني من قرية شحتول الواقعة في أعلى غزير . وقد كان يتعاطى التدريس . عاشت ماري وحيدة ، لا أخ ولا أخت ، طيلة ١٣ عاماً ، فما كاد يقبل العام ١٩٠٠ ، حتى تركت الناصرة وعادت الى وطنها الأم لبنان .

★ لعبت «الناصرة» ، بجوّها الطبيعي المشبع بالتاريخ واحداثه الاليمة وصوره الموحية ، دوراً كبيراً في نشأة الابنة ماري التي تأثرت بذاك المناخ تأثراً عميقاً جعلها تتمسح بمسحة من الكآبة والتأمل .

★ لدى عودتها الى لبنان ، وهي في الرابعة عشرة من عمرها، راحت ماري تكتب يومياتها التي تتصدّر هذه المجموعة ، فجاءت هذه اليوميات ايذاناً بتفتح موهبة ادبية جديدة.

★ تميّزت حيـــاة ماري في مدرسة عينطورة بالانزواء

والانطواء على النفس . فكانت لا تشارك جيلها في تساليه واهتماماته ، حتى ولا معلماتها الراهبات ، واكتفت في تلك الفترة بممارسة هوايتها المفضلة وهي العزف على البيانو.

★ من راهبات الناصرة الى راهبات عينطورة شوط طويل للفتاة ميّ تميّز بالوحدة والهرب من الآخرين . وقد تجلى ذلك في باكورة أعمالها الادبية « أزاهير حلم » .

★ عام ١٩٠٤ ، وقد بلغت ميّ الثامنة عشرة من عمرها ، هو عام التخرّج بالنسبة إليها . فتركت لبنان عائدة الى كنف الوالدين في الناصرة .

★ رغم العودة الى كنف الوالدين في الناصرة ، بقي الفراغ مغلفاً حياة ميّ ونفسها . في تلك الفترة ، اكتشفت ميّ طريقاً جديداً لتحقيق ذاتها وبلورة مواهبها . فكان ان عرّجت على ادب الرومنطيقيين لتتعرّف الى عالمهم الأقرب الى نفسها . فها هي تقف أمام ادب لامرتين لتجيل النظر في آفاقه المترامية هنا وهناك . ثم نراها تلج حرمات المرأة التي لم تعد محرّمة مع مدام دو سفينييه ومدام دوستال وجورج صاند ومارسلين ديبورد فالمور ، لتخرج فيما بعد بقرار يحدد وجهة سيرها كامرأة . فقد اقتنعت بعد هذه المطالعات بأن الفتاة لم تخلق للزوج وللأولاد وللحياة الرتيبة التي لا ترتكز على فكر ولا

تصبو الى مثل أعلى . وكانت ترى أن فارس أحلامها ليس من ابناء اليقظة ، بل هو يلوح لهـــا في السيَر والروايات . من هنا تعلقت بلامارتين بعد أن أغرتها اشعاره وسيرته الى حد جعلها تتنكر لجنسها وتتجرأ ان تقدم اليه أول نتاج لها بهذه العبارة : « الى النفس الكبيرة ، المذبة ، المتألمة ... إلى لامرتين ، من قلب فتى يحبه » .

* انتقل الياس ، والد ميّ ، الى مصر عام ١٩٠٨ ، وهو العام الذي شهد الانقلاب العثماني ، وإعلان الدستور . فاعترت على اثر هذا الحدث قشعريرة فرح عارمـة في العالم العربي .

في هذه المرحلة ، ذهبت أسرة ميّ الى القاهرة لتجد الابواب مفتوحة امام ميّ كي تنطلق في رحاب الحرية والعمل . وهناك تأثرت ميّ بالجوّ الفكري في مصر الذي كان سائداً لدى الرومنطيقيين الاوروبيين عن مصر القديمة ، مصر الاساطير والفراعنة وما تناهى عنهم من أخبار وسيَر وآثار فنية تفصح عنها أوراق البردي ، وتحفظها الى اليوم الاحرف الهيروغليفية وروايات الأغارقة والرومان . وسرى إلى ذهنها من ذلك الجو أسطورة إيزيس وأوزيريس ، وهي الاسطورة التي راجت في الحضارة الهلينية من بعد .

أصبح هذا الجوّ الاسطوري اذن حياً في ذهن ميّ ، وما لبثت ان احيت اسم «ايزيس» في اول كتاب وضعته بالفرنسية ، وكان عنوانه « ازاهير حلم » . كما أحيت إسم « ميّ » العربي من بعد ، ولكنها أضافت الى ايزيس لفظة لاتينية هي « كوبيا » وتعني الغزارة ، وقد ارادت بها ترجمة اسم أسرتها « زيادة » . وانتشر « أزاهير حلم » لمؤلفته ايزيس كوبيا عام ١٩١١ في مصر بعد ان قدمه الى القراء الشاعر خليل مطران .

★ عنيت ميّ بالحركة النسائية في مصر اثر سماعها محاضرة لبيبة هاشم عن « حرية المرأة » في الجامعة المصرية عام ١٩١١ ، فلاحظت ضرباً من الخفّة والاستهزاء بموضوع المحاضرة لدى بنات جنسها . ورأت رفيقاتها الحاضرات يتلهّين بأحاديث الازياء وشمّ الهواء وسرد قصص فلان وفلانة ، فتنبهت الى حقيقة موقفها الاجتماعي كفتاة من قضايا الحياة الكبرى ، وراحت تقارنه بموقف المرأة في الغرب . وهكذا ... أصبح لها قضية !

★ كانت ميّ تريد – بكلّ طيبة وبساطة – ان تحطم الأغلال التي ترهق المرأة الشرقية ، ولم تكن الاولى ولا الوحيدة التي مشت في هذه الحركة ، وانما سبقتها اليها السيدة ملك حفني ناصف التي اتخذت لها لقب « باحثة البادية » والتي عمدت ميّ الى درس أعمالها بوصفها الرائدة

المعروفة لنهضة المرأة آنذاك فنشأت بينهما صلة تعارف وتعاون .

وقد ارتكزت دعوة ملك في ذلك الحين على مبدأ وهو « ان التربية من خصائص البيت لا المدرسة » . وزادت ميّ على ذلك بأن ربطت بين العلم والأخلاق .

★ كانت المطالعة غذاء ميّ الروحي . وكان جبران ينشر كتاباته العربية في « المقتطف» و «الهلال » ، فكتبت اليه عام ١٩١٢ . وكانت منذ ذلك الحين بينهما مراسلات أدبية اتسمت بالتعاطف الودي والروحي .

★ كانت ميّ تتلهى في فترة ما بين الحربين عن نفسها وهمومها العاطفية والأدبية بالأسفار والاهتمام بالحركة النسائية وبالتأليف والترجمة وتعلّم اللغات . بيد أن لهوها الأكبر كان في التحدث الى الادباء الكبار في عصرها . فقد كانت تعقد في بيتها اجتماعات بين هؤلاء للتباحث في شؤون الأدب على اختلافها ، فتحوّل بيتها الى صالون أدبي يلتقي فيه رجال الفكر بانتظام .

★ الا أن الموت سرعان ما فرق شمل هؤلاء الرواد . فقضى ولي الدين يكن سنة ١٩٢١ ، وتبعه اسماعيل صبري سنة ١٩٢٣ ، بعد ان سبقتهما الى دار الخلود ملك حفني ناصف (باحثة البادية) سنة ١٩١٨ . ثم توفي

مرشدها وصديقها يعقوب صرّوف سنة ١٩٣٠ . وجاء تدهور صحة جبران عام ١٩٣١ وموته ليمعن في آلامها . ثم ما لبثت أجنحة الموت أن خطفت والديها ، فقبعت وحيدة في دارها تخيم عليها وساوس الوحدة والكآبة . ولولا سفرها المفاجىء سنة ١٩٣٢ الى فرنسا ومن بعدها الى انكلترا ، لكانت انتهت تحت وطأة كوابيس الموت . إلا انها سرعان ما عادت الى مصر وعادت نوبة الذكريات وأشباح الماضي وعـاد الموت يطرق بابها بالنعي ، تارة بحافظ ابراهيم وطوراً بأحمد شوقي . فتركت مصر من جديد الى ايطاليا ، الى ارض الآثار الفنية الرائعة لتنعم بأفياء الروح ولتبتعد قليلا عن جو الذكريات الخانق . إلا أن نوبة الحنين عاودتها الى ربوع الأصدقاء ، فعادت الى القاهرة . ولم تكن في هذه الفترة لتقابل إلا الدكتور طه حسين وامتنعت عن الاجتماع بأحد .

★ وتنامت أخبـار سويدائها الى أحد اقاربها في لبنان الدكتور جوزف زيادة فذهب الى القاهرة واصطحبها الى بيروت . الا أن بيروت لم تكن لتبدد شيئاً من ظلمات نفسها ، فعاودتها أزمة النفس وتسببت في ادخالها الى « مصحّ العصفورية » ، بعدما عانت من وساوس عائلية مع الأقرباء ، قيل فيما بعد إنها كانت صحيحة الى حد بعيد .

وقـد أحدث دخولها « المصح » ضجّة في الاوساط الادبية ، فزارها امين الريحاني وأقنعها بالانتقال الى بلدته الفريكة حيث عاشت فترة هدوء واستجمام طيلة ثلاثة أشهر ختمتها بالرحيل الى القاهرة .

★ في القاهرة توالت عليها الأنباء القاتمة بوفـــاة صديقها فليكس فارس ، فعـاد اليها مرضها ووساوسها وقويت أعراضه في السابع عشر من شهر تشرين الأول ١٩٤١ ، فامتنعت عن الطعام والاتصال بأحد . وبقيت ثلاثة ايام على هذه الحال حتى كان ليل العشرين من ذلك الشهر ، فارتمت على سريرها وهي لا تقوى على الحراك . واسلمت الروح دون أن يعرف بها أحد .

سيمون عواد

في مدرسة عينطورة

من يوميات عائدة[1]

يوم الأربعاء أول مارس

قد بدأنا شهر مارس . ما أسرع مرور الزّمن ! إن أنا شعرت بالزمن متعجلاً كل هذا التعجل في حداثتي ، فماذا عسى يكون شعوري عندما أتقدم في الحياة أعواماً أخرى ؟ وبعدئذ ، بعدئذ عندما أمسي عجوزاً !

عجوز ، أنا ؟ أتراني أصل إلى ذلك العمر ؟ وكيف يكون المرء عجوزاً ؟ كيف يشعر عندئذ ؟ وكيف يفكر ؟ يخيل إليّ أني سأرحل قبل ذلك ، وأن الموت سيحملني غضة الشباب فيطير بي إلى حيث تسبح الملائكة وتلبث الأزهار ناضرة .

أشتاق إلى الموت في هذه الأيام . ذلك لأني لا أفهم الحياة التي يقول مرشدنا الروحي « إنّها مشكلة المشاكل » .

لقد استيقظت باكراً هذا الصباح ؛ فلبثت في سريري

---

١ هي مي نفسها .

لا أبدي حراكاً وانشأت أتأمل . . . « ما هذه الحياة التي نحياها ؟ » — كنت أكرر لنفسي : ما هذه الحياة التي قال عنها المرشد إنّها « مشكلة المشاكل . . . » وإنّها سريعة سرعة السهم المنطلق في الفضاء ؟ ويقول عنها أشياء أخرى تذهلني ولا أفهمها .

* * *

ما معنى هذه التقلبات ، وهذه الحاجات ، وهذه الأنظمة المتولدة أبداً هنا وهناك ، فيّ وفي غيري ، ونحن نراها شيئاً طبيعيّاً وإن آلمتنا واسخطتنا ؟

لماذا يشتغل كلّ من هؤلاء النّاس في عمل ما ؟ ما معنى السكوت المخيّم الآن على هذه القاعة الكبيرة ؟ هؤلاء الفتيات قد يكنّ مثلي مستيقظات يناجين نفوسهن وهن مع ذلك يلزمن الصمت ولا يبدين حراكاً . . . ما بالنا هنا ؟ وما هو « هنا » ؟ أمدرسة ؟ وما نفع المدارس ، ولأي شي وجدت ؟ ومن ذا يثبت أن التعليم والتهذيب شيء حسن ؟ ولماذا لا نعود إلى منازلنا ؟ ولكن منازلنا ليست بمنازلنا ، والدليل أنّنا بعيدات عنها وهي مع ذلك لم تتغير بغيابنا . . .

لم يكن هذا « المونولوج » الصامت متناسقاً كما نحاول أن يكون تفكيرنا حين نكتب فروض الإنشاء للتمرين والمسابقة .

بل كان مبهماً ، كسولاً ، متقطعاً ، يثب إلى هنا ، ثم إلى هناك بحرية الأحلام وطلاقة التأمل .

يا للفكر من صديق لا يهجر ولا يخون ! إنّه أبداً حاضر يشاطرنا التأثر والألم والمسرة ، ويظل يناجينا وقد انصرف عنا الجميع فيأتينا بالتعزية الممكنة ويوحي إلينا الأمل المتجدد . . .

وهكذا انتقلت من تأمّل إلى تأمّل حتى انتهيت إلى فكرة الموت .

كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم ! فما كنت أحاول أن أفهم . بل كنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح . غير أني اليوم انتشرت في نفسي فكرة الموت مع لذة الشعور بها ، انتشار الألحان من الأرغن العازف .

ولكن تلك النظرة التي أرسلتها إليّ في الظهر ونحن خارجات من المائدة ! . .

هي تلك النظرة الجافية التي حملتني على البكاء وأحزنتني طول النهار والمعلمات يسألنني عن حزني ، والبنات يسألنني عن بكائي ، فبمَ أجيب ! لو تلفظت بكلمة واحدة لأخجلتني غباوتي وكنت موضوع نكتة لهن .

كيف أتخلص من شعوري ؟ كيف أفنيه ؟ كيف أصير صخرة ؟ حدّثيني ، أيتها الحجارة العسيرة ، كيف صرت حجارة .

٢ مارس مساء

نحن عائدات من المعبد حيث ألقى علينا المرشد عظة اتفق البنات والمعلمات على أنّها « بليغة »، وإنّهن ليتفقن على ذلك كلّ مرة .

يروعني من المرشد جزالة صوته ، وصدى ذلك الصوت المتوزع في المعبد الرهيب . ويروقني منه علو أفكاره وشرف تعبيره . لن أصف هيئته الخارجية لأن النّفس إذا هي كانت جميلة ضعفت أهمية المظاهر ، ولكن يروعني منه امتيازه في هيئته وحركته وكلامه . وجبهته هي جبهة العلم والذّكاء والإدراك . ونظرته نظرة الفيلسوف الذي يكتب ويرحم ويتجلد . وعلى كل هيئته تغلب عاطفة الصلاح .

ومع ذلك . . . أترى يغتفر ذنبي ؟

* * *

وانتشر شذا البخور في فضاء المعبد .

عندئذ جثوت على سريري وطلبت الموت لا جبناً ولا ضعفاً بل شوقاً إلى السماء الزرقاء حيث الطهر والنقاوة والجمال والكمال . وما زال هذا الشوق فيّ حتّى الساعة : ساعة الغروب .

الجمعة ٣ مارس

أفٍّ لي ، إني خائرة العزم !

أنا التي أطلب الموت وأريد أن أتحلّى بالفضيلة والتقوى ، ما عرضت لي معاكسة صغيرة إلا تمرد فيَّ الكبرياء وحب الذات ، والغرور والنزق ، وتحالفت جميع عواطفي الشريرة على هذا الفعل الصغير من أفعال التواضع والتجلد ، فإذا بي أشكو وأتذمر وأبكي . . .

إلهي ، إلهي ! متى أصير فاضلة وأحتمل صابرة كتوماً ؟ كم ذا أغبط معلماتي ! فبينهن من تثير إعجابي ولا سيما ن . و . ولا شك أنّها جاهدت كثيراً للتغلب على نفسها . لأنّها ليست من تلك الطبائع الكثيفة البليدة ، بل هي بالعكس نشيطة ، حادة الذّكاء ، ذات مواهب ممتازة ، غزيرة العطف ، رقيقة الشعور . منذا لا يحب نور عينيها المتألق ؟ ومنذا لا يحب الحلاوة في أجفانها المسبلة ؟

الثلاثاء ٧ مارس صباحاً

ساعات النّهار تسير ببطء . على أن الشّمس لم تشرق اليوم . إنّها تختفي وراء الغيوم وتتلفع بدثار من الأسرار . الجو رمادي الأديم ، والأفق متشابه الألوان في جميع جهاته ،

والأرض مغتمة حسرى ، والمطر على وشك الانهمار .

هذا الطقس يلقي على نفسي غشاء من الاكتئاب والتخدر . عندما يكون الجو رمادياً كذلك يكون وجداني .

إني اؤثر الشّمس بازغة تبهج العالم . والسماء أؤثرها صافية في زرقتها السنيّة . والنور أن يغذي النبات ويحيي الأزهار أفضل عندي من أن أرى الرّياحين منكسة الرؤوس والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر .

إني تعبة أنفر اليوم من الحركة ومن كلّ مجهود ولو طفيفاً ، وقد مضيت بعد الفطور أهيء كتبي الموسيقية لتكون تحت يدي عند درس البيانو في الساعة العاشرة ، فالتقيت المرشد فحييته فابتسم ونظر في وجهي ، ثم عبر لي عمّا أشعر به فقال :

ـــ أنت اليوم تعبة يا ابنتي ، فمم تشكين ؟

فخجلت وقلت : إني لا أشكو ألماً معيناً ، ولا علم لي بسبب تعبي . فابتسم مرّة أخرى وقال :

ـ إذن هي المخيلة ؟ المخيلة الحادة النشيطة الطيارة التي تتعب صاحبتها . ومضى يهز إصبعه باسماً . إنّه لمملوء بالعواطف الطيبة ، هذا المرشد ، وعنايته مفعمة رقة وعذوبة . كم أنا شاكرة له ملاحظته . إني تعبة .

يوم الأحد ١٢ مارس

يا دفتري الصغير ! أهملتك لأني قضيت هذا الأُسبوع في السرير . وقد نهضت في هذا الصباح فرحة بالصحة وبالشفاء ، فالتف حولي بعض رفيقاتي ، حتى اللائي لسن لي بصويحبات . إن للمريضة وللناقهة من المرض امتيازاً في أن يعطف البنات عليها حقيقة ، أو هن ينضممن إلى اللائي يعطفن عليها ليجدن كلاماً يقلنه أو يتلقين كلاماً ينقلنه .

التففن حولي وقلن بصوت واحد إني لا تبدو عليّ دلائل المرض .

وقالت إحداهنّ : كم أُحب عقارب شعرها !

وقالت أُخرى : كم أُحب عينيها !

وقالت غيرها : ما ألطفها اليوم !

يا للرفيقات الشقيقات ! يقلن ما يخطر لهن ليقنعنني بأني غير مريضة . وهن مصيبات . ولكن إن حسبن أن ثناءهن ينفخ في رأسي ويبث فيّ المفاخرة فهن مخطئات . إن الثّناء لا يروقني .

. . . الثّناء لا يروقني ؟ أهن المخطئات أم أنا المخطئة ؟ إذا كان الثناء لا يروقني فلماذا أشعر منذ أن حادثنني بأنّ شيئاً يبتسم فيّ سروراً ورضاً ؟

يوم الأحد مساء

أؤمن بإله واحد !

نعم يا إلهي ، أؤمن بأنّك واحد لا إله إلا أنت ، وأنّك أنت خلقتنا ، وأنّك صالح ، وأن الحياة جميلة .

هذا يوم بهي !

الموسيقى في هذا المساء على أبدع ما عهدت .

لا بدّ أن يكون في السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربانية ما لم تسمعه من هذه الأرض أذن ، ولم يخطر شيء منه على قلب بشر .

إن الموسيقى لتخاطبني بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكي وعواطفي . إنّها تنيلني أجنحة وتطير بي إلى عوالم لا يطرقها غيرها . أشكرك اللهم لأنّك فطرتني على حب الموسيقى وحب الجمال !

يوم الاثنين ٢٠ مارس

كانت عائدة ذات طبيعة غنية خصبة ، تحب الجري واللعب والضحك – وأي فتاة لا تحب ذلك ؟ – وتبتكر للهو أساليب طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها . ولكنها كانت وحيدة الروح وكثيراً ما كانت تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر

المنفرد في أطراف الساحة فتجلس هناك ناظرة إلى البحر البعيد ، إلى زرقته الغيماء واستدارة الأفق المخيم عليها ، متمتعة بجمال الطبيعة ومتهيبة مظاهر روعتها جميعاً . فترى السفن ، وقد تضاءلت بشاسع المسافة ، مارة في تلك الزرقة القصية بكياسة ورشاقة تترك وراءها خطّاً أبيض طويلاً لا تعرّج فيه . عندئذ تمعن عائدة في تفحص ذلك الخط المستقيم ، كأنّما هي تقابل بينه وبين خط آخر رسمه في داخلها مرور سفينة من سفن أحلامها شقت أمواه نفسها العميقة .

* * *

أخذت عائدة تكتب ، ولا سيما أن عيد الميلاد قد دنا وأخذت أيام العام الأخيرة تسرع نحو هوة العدم . كانت تكتئب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلهن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها . وعائدة من بلدة بعيدة كلّ البعد ، لذلك لا يزورها من ذويها في العيد أحد . وستقضي هذه الأيام وحدها بين أولئك النسوة الصائمات المصليات الزاهدات ، اللائي كانت تشعر بأن منهن غير السعيدات رغم امتثالهن الظاهري ، فتودع رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لهن عيداً سعيداً . حتى إذا مضت آخرهن انطلقت إلى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء .

* * *

وكان مساء العيد حزيناً ، وجوه مكفهرّاً ، والدير صامتاً كتوماً ، مرمريّاً كالمقابر القديمة يضن بخفاياه . وكان لعائلة يومئذ أن تفعل ما شاءت دون قانون يقيدها فتقضي أكثر أوقاتها في غرفة الموسيقى المنفردة في أطراف الحديقة تخيم عليها الأشجار ذات الغصون العارية .

هنالك جلست طويلاً والسماء تمطر رذاذاً ثم نهضت إلى البيانو ، وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة : « ما أشدّ برد البيانو ! » ثم أضافت : بل البرد في يدي ، البرد في روحي ، البرد في وحدتي وغربتي . إني جليد ولكني جليد يتعذب واشعر بأنّ كلّ ما في هذا الدير جليد حي ينبض ويتعذب ويبكي .

وألقت برأسها إلى خشب الآلة الموسيقية . على أن يداً لطيفة اجتذبتها مداعبة شعرها وخدها . فصرخت الفتاة قائلة : اتركيني ، لا اريد أن يشفق عليّ أحد لأني لا أطلب الشفقة .

هذه الحياة الإنسانية

إنّما حياة الانسان على الأرض جهاد مستمر رغم كونها محض عبور ، ورغم أنّنا نموت ، في ذاتنا ، كل يوم .

وإذا كان النمو سنّة نافذة فينا ، فإنّ حياتنا منظمة من جهة أخرى بحيث نودع أدغال الطريق نثرات من مرورنا ، خطوة بعد خطوة .

يخيل لنا أنّنا نتخبط في سبيلنا على غير رشد ولا نبصر ، وشر من ذلك أنّنا عوضاً عن تبادل التعاون مع الأنداد والأقران نكون لهم الخصوم قسراً والمنافسين . .

* * *

أتبغي يا هذا ، فصل وردة مبللة بندى الليل عن غصنها الريان ؟

حذار ! فالأشواك تعترضك فتمزق منك اليد والأنامل .

أتريد قطف بنفسجة تدللت بالتخفي وراء العشب المخملي !

حذار ! فهناك الأفعى تفح ، وتلتف على نفسها ، ثم تنحل مراوغة وتتهيأ لتنقض وتلدغ .

أتروم الظفر بزهرة تفتحت على أريكة الغصن ! حذار ثم حذار ! أفما لمحت تلك العين المترصدة ، وانتبهت لما في الأمر من كمين ؟

أتود لثم تلك الزنبقة البيضاء ؟ ها هي ذي اليد الكثيفة تهوي على كتفك فتشل منك الحركة وتلقي بك في فخ يترصدك .

* * *

بين الناس كفاح وعراك ، ورغم ذلك فإن الحي لا يحيا لنفسه ، بل لغيره نتاج جهاده ومسعاه . وهل يتيسر النصر للفرد الواحد في حين تتحد عليه جميع القوى ، وتتألب لقهره والفتك به ؟ بدهي أنّه بين هذه الموانع والحواجز لا يظفر بأكثر من وريقة عطرة تنثرها الريح عن زهرتها ، وأنّه من الثمرة التي يغرسها ويغذيها بالجهود والاحتمال والتضحية ، لا يجني غير التمني والتشوق والانتظار !

* * *

عندما تمر بك ، يا هذا ، لحظة سعادة وهناء ، ألا تراها تتعجل التفلّت والانصراف ؟ وإنّك لتستنفد مجهودك عبثاً في التشبث بها والوقوف بها في رحبة الزّمان ، لأن أيامك

شبيهة بالليل الجارف ، والموج منه يستحث الموج السابق .

* * *

ماء السيل يتدفق على الجلاميد القاسية ، ويتشعب بين النواتىء الوعرة ، وينصبّ في شلالات مضطربة وانحدارات مرتعشة . يحشر في غيطان كدرة ومستنقعات راكدة ، فينزع إلى مزايلتها إلا أنّه يفشل ، ويلبث فيها وقتاً يحدده القدر وطبيعة الأشياء . ثم يمضي في جريه قرب الشواطىء الباسمة ، ويتغلغل في الحدائق الغنّاء فيرتاح إلى ظلالها ، ويهيم في صمتها الشامل الذي لا تقطعه غير أنشودة الناعورة الساذجة . فيطلب التريث هناك فلا يفلح ، لأن القدر قضى بغير ذلك وحكم .

* * *

ثم يسترسل السيل في مجراه . وقد تلقي إليه يد متأنية بزهرة زرقاء هي شارة الحب ، فلا يتعرف إلى تلك اليد . أمّا هذه الزهرة النحيفة التي يحملها عبابه ، فعبثاً يسعى للاتحاد بها والتوحد وإياها .

وربما أمطر طاقات من الأزهار الذابلة فيعجز عن طرحها والقذف بها إلى الشاطىء ، فليس ذلك من قدرته ولا هو في وسع وقته .

وإذا اجتاز بحيرة حفلت سواحلها بظليل الشجر فرجا أن يستريح فيها حيناً، فإنّه لا يتباطأ هناك إلاّ ريثما يجدد قوّته. وليس لتشديد عزيمته من غرض سوى الاندفاع الجديد . فيطفر في مضيق بين الجبال ، ويتشعب بين صلد الهضاب والأحجار جارفاً معه الأعشاب اللطيفة . ثم يثب وثبته في الوادي فيبث فيه التهاليل ويملؤه بالأصداء والأنغام . وبعد أن يهدأ اضطرابه يتسع المرج الذي يستقبله ، وتظل تتصافى كدرته بابتعاده عن الشواهق والروابي ، ولا يقبل على التلاشي في زرقة الأوقيانوس العظيم إلاّ وقد راق ماؤه وتكامل شفوفه البلوري .

* * *

تتشوق مياه السيل في عكرها وكدرتها إلى زرقة البحار الفيحاء ، تشوُّقَ قلب الإنسان في غمومه واضطرابه إلى سناء المثل الأعلى .

ويتوق مجرى السيل إلى التوحد والمسافة العميقة ، توقَ الإنسان بكليته إلى هناء السعادة .

ما هي الوطنية ؟

ما هي الوطنية ؟ كيف تشب فجأةً فتغزو القلوب وتثير فيها جنون العواطف ، وتنمي في جوانبها نبتة التأمل والتبصر والإرادة ؟

في مواكب الحماسة تسير المخدرات سافرات . وفي الألوية تتلاثم الأهلّة والصلبان . ويتحاذى من الجمهور الرفيع والوضيع والوطني والأجنبي ، ممثلين جميعاً إمكان التآخي بين بني الإنسان في التفاهم العام وإعطاء كل ذي حق حقه .

واستيقظتْ شخصيتي الشرقية بفعل ذلك التأثير . وكما يحملنا أحياناً سحر الأنغام إلى بقاع مجهولة ، سارت تلك الشخصية إلى أقاليم بعيدة وراء مترامي القفار .

اجتازت فلوات الظمإ والخوف والوحشة والسراب والسكون . ومرّت بأبناء المشرق في أوطانهم في المدن والعواصم ، في السواحل والجبال والأودية ، عند القبائل المقيمة وعند العرب الرحل .

مرّت تصيح في كلّ قوم : وأنتم ما حالكم يا أبناء الشمس ، أما سمعتم قعقعة القيود المتكسرة في الوادي الأخضر ؟

لقد تحطمت القيود الدهرية وأخذت تتساقط على وقع أناشيد الحرية . شعب الوادي يهتف ويثبت حقه على الحياة والحرية ، ألا فأصغوا إلى صوته فقد ملأ المروج والبحار ! وأطلقوا أصواتكم من حناجرها فقد انقضى وقت الرقاد !

* * *

أيّها الشرق !

يا شرقي الكبير الرهيب الرؤوف ،

يا شرق الطرب والحميّا والنخوة والشدة العاصفة كريح السّموم !

إنّك لتتجمع تحت نظري كلوحة مصورة . فأرى منك الفقر ، والجهل ، والاضطراب ، والاحتدام ، والانفعال . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة . ربوعك خالية ممّا لدى الأقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل . ربوعك خالية من المتاحف والخزائن والودائع المجلوبة من قصي الأنحاء . إنّك جاهل فقير مفكك الأوصال .

ورغم ذلك فأملي بك عظيم كالحياة والحرية !

أي قوة هذه التي تشدّ وثاقي إليك ؟

لماذا أهوى من لغتكَ الشدو الشجي النوّاح ، والنبرة السريعة الحادة ، والهتاف الأبيّ الحار ؟ ماذا تلمس فيّ هذه

اللغة العربية التي تنثرها شعوبك في مجاهل القفار ، وعلى الجبال والهضاب ، وعلى سواحلك وأنهارك وجداولك ، ووراء القطعان في مروجك ، وقرب أنين نواعيرك ؟

أية وديعة لها عندي حتى تثير لهجاتها فيّ البكاء الحنون كبكاء اللقاء بعد فراق طويل ؟

طويّتك الواسعة الخفية تستهويني ، أيّها الشرق ، وتأسرني أنا الذرة الصغيرة بين ملايين الملايين من ذراتك . وتمرج فيّ كل كيانك بصحاراه ورياضه ، بشواهقه وشواجنه ، ببداهته وعجزه ، بفضائله ونقائصه وبالقلوب المضطرمة فيه والنوايا الخالصة بين أبنائه .

ألا نظرةً إلى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء العسجد واللجين والأُرجوان !

إنّها الجوّ الوحيد الذي أظلّ الرُّسل ، وما رضيت النبوات أن تنزل في غير هوائه .

إنّك ، أيّها الشرق ، اصطُفيت لتكون أرض الأبطال ومنشأ الجبابرة .

لقد حقّت لك الرّاحة ثلاثة قرون بعد ازدهار عشرات القرون . لقد حق لمدّك السّني المحسن أن يجاري ناموس الكون فيتخاذل في جزر محتوم . ولكن ها قد آن أن ترتفع موجتك الجديدة وتمتد ! ها قد جاء وقت النهوض : فإلى النهوض

رغم النوائب والمثبطات ! إلى النهوض !

حولك الأقوياء يتكافحون ويجاهدون ويغنمون . وهم رغم ذلك يئنون في الظلام : « هناك فجر منتظر لم يلحْ بعد ! »

وكيف يلوح الفجر قبل أن يستنير المشرق ؟

أنت برج الفجر ، أيّها الشرق ، أنت مزجي الأشعة !

فقم واعمل ! قم وارقب من أي أنحائك يلوح مشعل الضياء !

الحكيم وطالب الحكمة

كان يتكلم والطلبة حوله ينصتون .

كان يتكلم عن ذلك الاتجاه الفكري في القرن التاسع للهجرة ، وقد دعاه العرب « فلسفة طبيعية » .

فاستطرد الحكيم قائلاً : « وسمي هذا الاتّجاه أيضاً فلسفة على الإطلاق من حيث أنّه مقابل لفلسفة المتكلمين أو الفلسفة الكلامية .

« وكان الطب أهم مباحث تلك الفلسفة المشار إلى المشتغل بها بالمزج المعتاد بين لفظتي حكيم وطبيب .

« واستمرت تلك الأبحاث إلى القرن العاشر .

« فكان أشهر القائمين بها الطبيب الرازي (المتوفى عام ٩٢٣ أو ٩٣٢) .

« عديدة هي الكتب المنسوبة إلى الرازي . وأكثرها رسالات وجيزة . وقد تشتّت جزء يُذكر منها في مكاتب مختلفة .

« ومن تلك المؤلفات كتاب في الكيمياء القديمة أهداه الرازي إلى أمير خراسان ، منصور بن اسحق الساماني .

« ولما عجز الرازي عن أن يبرهن عمليّاً على ما أثبته في كتابه مبدئيّاً ،

« ضربه الأمير على وجهه ضربة أزالت بصره . . . انظروا إلى هذا التوحش ! »

أحد الطلبة : « فعل الأمير ذلك لأن الاعتقاد بفعل الكيمياء القديمة ضرب من الأوهام . وملاحقة الأوهام توجب الردع . فعمل أمير خراسان لم يكن إذاً توحشاً بل عقاباً عادلاً » .

الحكيم ، بعد سكوت قصير : « إذاً أنت ترى أن هذا الرجل استحق فقد عينيه لأنّه كان يلاحق ما دعوته أوهاماً ؟ »

الطالب : « نعم » .

الحكيم (بعد سكوت آخر) : « إذا كانت ملاحقة الأوهام والاعتقاد بها تستوجب عقوبة العمى ، فمن ذا منا يا ترى ، من ذا من البشر يا ترى يستحقُّ أن يكون بصيراً ؟ »

المرأة والتمدن *

كلمة شكر أقدمها إلى سعادة رئيس هذا النادي سكاكيني بك . . . وحضرات أعضائه الكرام . إني أشكر لهم حسن ظنهم بي . وألبي الدعوة التي شرفوني بها بغاية السرور . حسن أنْ يقف المرء في وسط قومه ، ولو مرة في العمر ، مناجياً من نفوسهم ذلك الجزء الأكثر حسّاً بما يتراكم على قلبه من الأفكار الجميلة المضنية ؛ ساكباً أمامهم بعض ما يجول في نفسه من الأماني العزيزات والرغبات الحارّات .

نادٍ شرقي يزينه حضورٌ شرقيون . إنّ نفسي الشرقية لتهتز طرباً لهذا الموقف ، وسأتكلّم بصراحة وثقة كأني الطفلة الأولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح . طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مستسلمة لرعاية من هم حولها ، مستبشرة بدلائل الانتباه البادية في أنظارهم وابتسامة التشجيع المرتسمة على شفاههم . ولا محل للعجب إذا تجاسرت على الكلام في

* ألقيت في حفلة أقامها « النادي الشرقي » في القاهرة ليلة الثالث والعشرين من نيسان « أبريل » سنة ١٩١٤ أمام جمهور غفير من أعضاء النادي ، والسيدات زوجاتهم وبناتهم .

ليلة تسمعكم صوت الدكتور نمر . إنّ الساقية الصغيرة لا تفقد معناها قرب النهر الكبير ، بل إنّ جمال تدفقه يكسب ضعفها قوة ، وتعطيها جيرته مجداً وفخراً .

الموضوع

أيـّها السادة والسيدات ،

نحن في فصل الربيع والحياة تنبض بقوة في كل جزء من أجزاء الكون . ونيسان رسول الجمال ونبي النّور ، يسلم أنفاسه الأخيرة تاركاً جماله وأنواره في ذمة أيار ، ملك الورود . إذاً لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم به ، فإن الفصل المار بنا يوحي إليّ موضوعاً جميلاً . الأزهار ، تلك المخلوقات العجيبة التي لا تراها نفس حساسة إلاّ وتشعر بأنـّها إزاء سر غامض قد التف بألوان الحدائق والرياض ، وستّر معانيه بعطورها . على أنّ الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء . والأزهار التي تفتح في النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل ، لأنّ رطوبة الليل تُذبلها . لكني سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالاً ، وأتم شكلاً ، وأدعى إلى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوي القلوب الغيورة الرحيمة . تلك الزهرة التي تضم في كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان الذي لا يدرك ولا

ينقضي . تلك الزهرة التي يعذّبها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف ، وتتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال ، فلا ينقصف غصنها ولا يلتوي . تلك الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقلُ من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم .

لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ، هي المرأة !

تقهقر نصف الإنسانية

أيّها السادة والسيدات ،

لقد طافت المدنيّة أنحاء العالم ، وتلألأت أنوارها في القارات الثلاث تباعاً : في الشرق حيث جعلت أحاديث الأقدمين الفردوس الأرضي ، اتقدت شرارتها الأولى فكانت المدنيّة كالشّمس بازغة من بلادنا . وبعد أنْ نقلت خطوتيها الأوليين المجيدتين في آسيا وافريقيا ، تناولتها يد أوروبا ورفعتها في جو الجهل المظلم ، وهزّتها كقبس سحري قائلة : « أنيري العالم ! » فاستنار العالم وغمرنا ضياء العلم الساطع . وكأني بالمدنيّة ذكرت أنّها أكثرت من الحسنات إلى العالم القديم ، فذهبت تسعى إلى ما وراء البحار البعيدة ، في ذلك العالم الجديد الذي لا تقاليد تقف عثْرة في طريق نجاحه ، ولا هو موثق بسلاسل عادات قديمة تجعل الحياة على عاتق

الأحياء عبئاً ثقيلاً . في ذلك العالم البكر ، الذي قال فيه أحد كبار المفكرين : « إن كولمبس اكتشفه بينما كان لوثر يحاول هدم العالم القديم . »

أجل . لقد طافت المدنية أنحاء العالم ، ولكن ما حالنا بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها في اكتشافات البشر وعلومهم وفنونهم وأساليبهم وكيفية معيشتهم ، إلاّ أن الشقاء ما زال شقاء ، ما زلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسي ، والعاهات الأخلاقية على تعدد أنواعها . وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها ، والأوطان تشقى بأبنائها ، والعائلات تتعذب بأفرادها ، والأفراد تتوجع بميولها وتشقى بغرائزها المتناسخة عن وراثات بعيدة وقريبة . كلاّ ! إن المدنيّة لم تأت بتمام واجبها بعد ، ولم تصلح من الأحوال إلاّ البعض اليسير أو المتوسط . وأنتم أيّها السادة والسيدات ، تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة . ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلاّ تقهقر نصف الإنسانية ، هو جهل المرأة .

قال هيجو : ليس الرجل وحده الإنسان ، ولا هو المرأة وحدها ، بل هما الإنسان ، والإنسان هما . كل جنس دون أخيه نصف فقط ، ولا يصير عدداً كاملاً إلاّ إذا

أضيف إليه النصف الآخر . لا صحة للمرء إلا بسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرّجل إلاّ بسعادة المرأة .

تاريخ المرأة استشهاد طويل

كيف كان يراها المتقدمون ومنهم أفلاطون ؟

سعادة المرأة !

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، لو كان للدهور لسان لأنبأتك بما يدمي الفؤاد . المرأة ! لقد جعلتها الهمجية حيواناً بيتيّاً ، وحسبها الجهل متاعاً ممتلكاً للرجل يستعمله كيفما شاء ، ويهجره إذا أراد ، ويحطمه إذا خطر له في تحطيمه خاطر . كانت بعد ذلك عبدة شقية وأسيرة ذليلة ، ثم ارتقت مع مرور الأجيال إلى درجة طفلة قاصرة ، إلى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ ، إلى تمثال بهرجة تتراكم عليه الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة . ومن منا يدري بما كانت تستره الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية التي لم يضمدها بشر ؟

تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم ، ومن أغرب الغرائب أنّها لم تجد لها في القدم صديقاً ولا نصيراً . كانت عامة الشعب تكرهها وتحتقرها ، وليس ذلك بكثير على قوم جاهلين ، تحجرت منهم القلوب وصمّت الأفهام ، فهُم لا يدركون

شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة ، لكني أرى الأمر عجيباً ، بل فظيعاً ، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم . لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلاّ جمال جسدها وليس في قصائدهم ما يدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد ، وجميعهم متفق على تسميتها : الشيطان الجميل أو ينبوع المسرات السامة . وشعراء اليونان : أسخيلوس وأوربيدس وغيرهما ، يسمونها — ببساطة كلية — : « بلية العالم » . أما الفلاسفة فأكتفي بأنْ أذكر هنا كبيرهم أفلاطون ، أفلاطون الإلهي ، الذي يعتبره تاريخ الفكر أُمة بأسرها ، أفلاطون ذا الأحلام الغامضة والمبادىء السامية الذي لم يترك موضوع إصلاح سياسي أو أدبي إلا عالجه رغبة في إسعاد العالم — أفلاطون لم يفكر قط في تحسين حالة المرأة ولم يهتم بدرس أخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية .

ماذا أقول ! إن أفلاطون هذا قضى حياته آسفاً لأنّه ابن المرأة وكان يصرّح بازدرائه بأمه ، ويعتقد أنّ من كان جباناً من الرّجال في هذا العالم فعند ولادته مرةً أُخرى تتقمص روحه في جسد حيوان أو في جسد امرأة . . . وما علم أفلاطون أنّ امرأة ستعلّم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في « مدرسة الإسكندرية » وأنّ تلك المرأة لا يمنعها شبابها الغض وجمالها الرائع أنْ تكون أعلم علماء عصرها . تلك هي الفتاة هيباثيا

ابنة ثيونوس الرياضي الشهير ، التي قُتلت رجماً في شوارع الإسكندرية في أوائل القرن الرابع ، فذهبت شهيدة علمها وإخلاصها ورغبتها في إشهار التعاليم الأفلاطونية الجديدة .

أول من رفع شأن المرأة

صاحب الشريعة المسيحية وصاحب الشريعة الإسلامية

أيّها السادة والسيدات ،

أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الإشفاق والغفران هو يسوع الناصري . وهو أول من سوّى بينها وبين الرّجل إذْ جعل لهما خطة واحدة تفضي إلى ثواب واحد ، وإلاّ فللضّالين عقاب واحد . على أنّ النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام .

ثم جاء نبي الإسلام فرفع شأنها أيَّ رفعة في بلاد العرب ، إذْ حرّم وأد الفتيات ، وسوّاها بالرّجل في جميع الحقوق والواجبات ، إلاّ في الشهادة والميراث — فإن امرأتين تساويان رجلاً — وفي ما عدا ذلك فهي والرّجل سواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضاً . وللمسلمات أنْ يكنَّ فقيهات ، وكانت أول فقيهة منهن عائشة ، زوجة صاحب الشريعة الإسلامية الذي قال

لقوله : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وعليّ أنْ أذكر هنا اسميْ بترارِكا ودانتي ، وهما أول من تلمّس نفس المرأة من طغمة الشعراء والمفكرين . لقد جعلا لقصائدهما عرائس تتجلى فيهن ملكات الجمال الأدبي ، وهما اللذان ترنّما لأول مرة بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء الوقّاد ، ومقومة عثرات الجنس القوي . من منا لا يعرف لورا وبياتريتشي ؟ إنّ هذين الاسمين لا يفترقان عن اسميْ بترارِكا ودانتي ، وسيكونان أبداً المثل الأعلى الذي تود كلّ امرأة أنْ تكون صورة لهُ . هذا المثل الجميل الذي مرّ في مخيلة دانتي فصوّره في شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كبرق ساطع . ثم جاء كبير شعراء العالم الحديث شكسبير ، فجعل أبطال أكثر رواياته من النساء الجميلات ذوات النفوس الكبيرة ، تتلامس في قلوبهن بلطف يشبه تموّج النور في الهواء ، أقوى وأعذب شعائر المحبة بأسمى وأوجع عواطف التضحية ، وكذلك كانت النساء في روايات كورنايل ، وكلكم ذاكر بلا ريب بولين وكاميل وشيمان . . . ألا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكري تلك القرون من رأي شكسبير وكورنايل ، بل كان معظمهم مبغضاً للمرأة ، ساخراً بها إنْ لم يكن طاعناً فيها . وقد لخص بوسويه أسقف موو

أفكار معاصريه وأوردها في جملة واحدة إذْ قال بجديته الجبروتية المشهورة :

« خلقت المرأة من ضلع زائد في جنب الرّجل ، فلهذا السبب هي عقيمة لا ذكاء في عقلها ولا إدراك في نفسها » .

رحمة الله عليك يا بوسويه ! إنّك لم تكن نبيهاً ! أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرّجل فهذا أمر لا رأي لي فيه ، غير أني أفضل أنْ تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً من أن تكون – كوتليتا – مصورة ، وأما كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كلّ حال فلست متوليةً إثبات هذه المسألة التشريحية . . . أو اللاتشريحية .

لذلك كانت المدنية عرجاء

أيّها السادة ، لننس هذه الأقوال العتيقة ولننظر إلى أحوال الحاضر . إنّ النهضة النسائية تمتد يوميّاً في أقاصي المسكونة . إنّها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم وتنبىء بأنّ مدنية الأمس العرجاء التي لم تتكىء إلاّ على جنس من الجنسين ، هي غير مدنية الغد الممتعة بتحقيق الأماني . ليست مدنية الغد مدنية الرّجل وحده ، بل هي مدنية الإنسانية ، لأنّ المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقي بقرب الرّجل . إنّ موجة النور ، نور الارتقاء النسائي ، تزداد ارتفاعاً واتساعاً مع

الأيام . في فرنسا وانجلترا وأميركا وألمانيا وإيطاليا تجاهد المرأة جهاد الأبطال في سبيل ترقية جنسها وترقية النوع البشري معها . ولقد نالت جميع حقوقها في أسوج ونروج وفنلندا وزيلندا الجديدة ، وفي بعض الولايات المتحدة ، فهي الآن والرّجل سواء : أدبيّاً ومدنيّاً وسياسيّاً أيضاً . وفي كلّ من هذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلاً ، وحيث تقلدت الوظائف العمومية قد قلّت الجرائم ، وخفت وطأة السكر ، وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً في مستوى أخلاق الأمة وفي حالتها الصحية جميعاً .

هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل .

ما تفعله اليوم المرأة

التي قالوا إنّها لا تصلح إلاّ للخدمة

كم قالوا فيها إنّها لا تصلح إلاّ للخدمة البيتية والزينة الجسدية ، وها هي مُصلحة كبيرة ومفكرة عاملة . وكم قالوا إنّها حيوان جميل وشيطان لطيف ، وها هي ملك كريم يحاول إفهام الرّجل أن في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة . وكم قالوا إنّها كاذبة خبيثة وإن الصدق والإخلاص بعيدان عنها بُعد الشمال عن الجنوب ، وها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في أزمنة العبودية . وكم قالوا

إنّها مترددة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسؤولية ، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة . وكم قال فولتير إنّ فكرها سريع العطب وإنّه يتحطم تحطيماً إذا حاول استفهام ناموس علمي . غريب أنْ يقول فولتير هذا القول ، هو الذي استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتن ، وهي صديقته مدام دي شاتليه معربة كتاب نيوتن في ناموس الجاذبية . ثم اذكروا مدموازل لابلاس ، وماري كوالسكي ، ومدام كوري ، وعشرات من النساء المشتغلات في العلوم الطبيعية والعلوم المجردة ، والمئات المشتغلات بالفنون والصنائع والحرف المختلفة . في فرنسا خمسة ملايين من النساء يشتغلن حاملات في قلوبهن المسؤولية العائلية والهموم الكثيرة . يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والأوجاع ، داميات القلب ، ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد . ومثل ذلك في إنجلترا وفي الولايات المتحدة حيث عدد المعلمات فقط يكاد يبلغ الأربع مئة ألف . ويقول الإحصائيون إنّ في مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الأشغال العمومية .

قالوا إن العلم يذهب بملكاتها

وكم قالوا إنّ المعارف لم تخلق للمرأة وإنّ العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها ، وإنّه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالاً للرّجل . إنّها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها . المرأة الراقية وحدها تعرف أنّ لها فخراً رئيسيّاً واحداً وهو أن تكون أمّاً بكل معنى الكلمة وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة . وهي وحدها تعرف أنّها كانت إلى اليوم والدة الجسد فقط ، وتحاول أنْ تصبح أمّ الروح أيضاً ، أم العواطف وأم الأفكار وأم الميول ، والمهذبة الكبرى والصديقة العظمى .

قالوا لا عقل لها

وكم قالوا إنّها لا عقل لها ، وإن حياتها سلسلة أهواء متتابعة ، وتقلبات صبيانية تافهة ، وها إنّنا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد ، مغرقة منفعتها الشخصية في بحر المنفعة العامة . انظروا إلى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرّجال وأكثر ، روسيا

حيث الثورة الفكرية تهيء حتماً الثورة السياسية . كم من فتاة حسناء قد ضحت خطيبها ومستقبلها وهناءها حبّاً بمصلحة وطنها ، واشتركت في جمعيات تظن أنّ في تأييدها خيراً للبلاد .

أنصار المرأة ومن هم

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ، ولكن أنصارها أكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة . بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا . إنّهم يحترمون جهادها ، ويعترفون بحقوقها ، ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ، ويعجبون بإقدامها وثباتها ، ويرون في نهضتها أيدياً جديدة عاملة لخير الإنسانية وتخفيف الويلات عنها . أليس فيكتور هيجو هو القائل إن تحرير المرأة يحل أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب في العالم ؟

شرارة الحياة في مصر

صوت المرأة من أعماق الدهور

وهو القائل أيضاً إن القرن العشرين هو عصر المرأة . ولقد صدق في نبوته ! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور

الحياة حتى في أطراف الشرق الأقصى ، في الصين واليابان ، وفي تركيا . وها إني أرى شرارة الحياة تشتعل في مصر أيضاً ، حيث الرّجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم وبمثلهم ، وجل ما يتمنون هو أنْ تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بأمرهن . أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر . في مصر تشتعل شرار الحياة وإلا فماذا يعني وقوفي بينكم أيّها السادة ، وماذا يعني سكوتكم الجميل المملوء إصغاء تامّاً وتشجيعاً قويّاً وتفكيراً عميقاً ؟ أتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال ، وتستمعون إليّ بإشفاق كأنّكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور . النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء ، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلاّ همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم ، يرتفع الآن آتياً من بعيد من عمق أعماق الدهور السوداء ، من أقصى أقاصي الخليقة العجيبة ، آتياً من القبور ، من البحار ، من عناصر الحياة جميعاً صارخاً : أيّها الرّجل ! لقد أذللتني فكنت ذليلاً . حررني لتكون حرّاً ، حررني لتحرر الإنسانية !

خواطر

القصيدة الحقيقية محزنة في جوهرها . فالشاعر الذي لم يذق لذة الكآبة الباطنية العذبة إنّما هو شعرور أو متطفل على الفن .

* * *

قطرات الماء تتساقط قطرة قطرة ، بحزن وسكون ، على الرمضاء . والنسيم يداعب جبيننا المثقل . والوريقات الخضراء ترى الحياة مرةً اخرى على أشجارنا الجرداء .

* * *

إنّه لمن العذوبة أن نرى السماء تبكي . ما أفتن عينيها وهما تذرفان دموعاً حارة من أعماق القلب .

* * *

قد تكون الأمطار مجموعة عبرات يسكبها سكان الكواكب المتلألئة في الرقيع ، تشع أنوارها العذبة في ليالينا . . .
فمن يدري ، لعل الدموع السخينة الكثيرة التي نذرفها على

أرضنا هذه ، تمطر على كوكب آخر ؟

قيل لنا إن المطر ليس غير مياه البحر تمتصها السحب لتنزلها فيما بعد .

زعم العلماء هذا ، وبمجرد زعمهم قبلنا الفكرة وآمنّا بها . فيا لسذاجة البشر !

بربكم ماذا يعرف العلماء ؟ أوَلم يرتكبوا أفدح الاخطاء منذ . . . وجودهم ؟

إني لا أزال طفلة لأني افكر هذا التفكير .

عود إلى التأمل

بماذا يجب أن نفكر بمثل هذه الساعة ! أبالأفق الوردي ، الأصفر ، الأزرق ، البنفسجي ؟ أبالجبال الشامخة يكسوها الاخضرار وتمنطقها الغابات ؟ أبالينابيع الفضية المترنمة بين الأعشاب المرتعشة ؟ أبالمشاهد التي تثقل النظر المتأمل والجبين الساجي ؟

من أين أنت قادمة أيتها المناظر الفتانة العابرة ؟

* * *

وداعاً يا أيّها الصيف المولي، وداعاً أيّها المساء الأخير الذي قضيته هنا . إني لأشعر بكآبة تلازمني وتحزّ في أعماق

نفسي ، وعلى هذه الورقة البيضاء أخط آخر وداع حزين . . . فتتسابق إلى عيني الدموع .

* * *

انتهت قصيدة الجبال اللبنانية . وإني لمنطلقة بعيداً عن هذه الاماكن العذبة الفائقة المحبة .

آه لكم يعتريني من الحزن عندما يحجب الضباب البحري ظلال الجبال البعيدة ، ويغشاها البحر الأزرق فتختفي عن عيني .

إني لأجهل لماذا يشق عليّ الابتعاد عن لبنان . إنّه وطني . والطبيعة فيه عذبة والمناظر خلابة .

إني وإن تلوعت لفراق أشجار مصيفنا وصخوره ، لا أتلوع لفرقة بشريّ ، لأني لم أفارق نفساً صديقة . فجميع من صادفت ، ذكوراً كانوا أم نساء ، لم يتركوا في نفسي أثراً . أجل جميعهم خلا ماري الصغيرة . وهي فتاة في عمر البدر عيناها سوداوان جميلتان . إنّها توحي إليّ التأمل . ولعل سيدونيا إن علمت ذلك أحرقت قلبها نار الغيرة .

وجورج الصغير حبيب إليّ أيضاً . رأسه كبير وشعره أسود وعيناه خبيثتان سوداوان وشفتاه حمراوان رقيقتان تنقبضان وتبتسمان في وقت معاً ، أما خده فطريٌّ ناعم كأنه ما خلق إلا ليقبّل .

أجل لم تكن هذه إلا خلجات يوم واحد . شواعر لم تتأصل في فؤادي . أتركها ولا أذرف عليها دمعة حسرة فتمضي بغير فرح وغبطة .

* * *

يصعب علي أن أبتعد عن مكان قضيت فيه بعض أيام أو بعض ساعات . ذلك لأني أترك فيه فلذات من صميمي ، بعضاً من ذاتي أحنُّ إليه .

* * *

ما أعذب الذكرى ! ما معنى الحياة لولاها !

الرحلة الثانية

حيفا — يافا

كما تسرع الموجة الصغيرة إلى الاختباء في حضن أمها بعد مداعبة الشاطىء كذلك تجلس حيفا في سفح الكرمل . كأنّها بعد غسل بيوتها في البحر ابتعدت وارتفعت خوفاً من البلل . ومن جوانبها تتشعب السبل إلى مختلف الأنحاء . فأسير فيها بالتخيل والذكرى .

هذه سبيل تحاذي شفة البحر إلى عكاء الجميلة الضواحي ، الغنية التاريخ . ومن ثم إلى حديقة « البهجة » أجمل حدائق تلك البقعة . وفي جوارها « بستان العجم » عزلة كبير البهائيين عباس أفندي ، ومن أحفل الجنات بالورود . ثم تمتد الطريق وتتلوى ، وترتفع وتنخفض حتى صور ابنة صيدا وأم قرطاجة . صور التي شيدت — على ما يرى المحدثون — بأمر من تيروس سابع أبناء يافث بن نوح . ويقال إن أجينور الطروادي سكنها مع أبنائه الثلاثة : قدموس رافع جدران طيبة اليونانية وناشر الأبجدية في بلاد الإغريق . وفينيقس الذي أطلق اسمه على بقاع فينيقيا الواسعة . وأورب الذي

دعيت أوربا باسمه .

من صور هذه انطلقت القوافل النشيطة تنشىء المستعمرات في بلاد لم تكن تعرف معنى العمران . شادت قرطاجة منافسة رومة بعدئذ ، وأوتيكا الإفريقية ذات التجارة الغنية ، وقاديشا الأندلسية التي مضى منها الإسبان فيما يلي من العصور للبحث عن العالم الجديد .

صور اليوم مهدمة كئيبة . وفيها سكينة اليأس والكلال بعد أن كانت الملقى الأكبر للمواصلات مع جميع أنحاء العالم المعروف يومئذ . تتتابع الطريق منها بامتثال ، على مقربة من بحرها الجميل الفتان ، إلى صيدا المدعوة في التوراة « صيدا العظيمة » ، صيدا العظيمة التي أغرت الغزاة والفاتحين بجمال موقعها ووفرة ثروتها .

هنا ما زالت الطبيعة فتية باسمة . في بساتينها تتهدل الأثمار ويعذب الجنى . وفي فضائها تنتشر عطور الأزهار وأرواح جميع ما تنتج الأرض والبحر يعزف أنشودته في ظل جبال لبنان المضمخة بهناء معناها وحب أبنائها .

ليس الجبل الذي تستند عليه حيفا القائمة أمامي لبنان ، بل هو الكرمل . هو أكمة من سلسلة الجبال الممتدة بين بلاد الجليل والسامرة . لقد سافرت في حياتي الصغيرة مرات على ظهر الجواد في ظل هذه الجبال ، واستوعبت روحي ما ينطلق

من أشكالها وروائحها وبقاعها وغاباتها وصخورها من المعاني والأخيلة . ولكم شهدت أسراب الطيور فوقها وحواليها مرفرفة ! ولكم رأيت الأرانب والغزلان بين صخورها وأشجارها شاردة !

رأس الكرمل أعلى الرؤوس في الشواطىء السورية . وقد شاد الآباء الكرمليون كنيسة على قمته قام بجوارها دير يقطنه عشرات من الأتقياء الصالحين . إنّها لعزلة جميلة تطل على منظر بديع . هناك لا يزعجك صوت ممقوت ، ولا جلبة الاجتماع وأكاذيبه . بل ما تسمعه صباح مساء هو أناشيد التسبيح والتهليل على توقيع الأرغن الحنّان . وتظل ابتهالات الغسق والضحى والأصيل متعالية نحو الذي رفع الجبال ومرج البحار .

لست أدري أأنا أشد حبّاً للكرمل ، أم لجبل الطور المستدير هناك على صفحة مرج ابن عامر .

قد تنتهي أيامي قبل أن أكون على بيّنة من الأمر . كل هذا يثبت في النفس عواطف رحيبة . وكأنه يوسع التنفس في الصدر ويجتاز بالمرء كل عاطفة وكل تأثر وكل إحساس بما ينشره من أشكال وألوان وخطوط وعطور وتذكارات قديمة مجهولة . وسحره الأكبر ، كسحر كل محبوب ، هو الشيء الذي لا يعبّر عنه . كان لامارتين ما حلّ بأرض جميلة إلا

قال : « هذه أبهى ما رأيت . وأود أن أُدفن هنا بعد موتي » . وكأني من هذا القبيل « لامارتينية » على نوع ما .

على أن أعذب تذكار لدي من هذه الميناء هو أني عندها تعرفت بالبحر ووقفت في حضرته لأوّل مرة في طفولتي . وهو الذي ركبته يومئذ لأذهب إلى مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة .

مساء ما زال حيّاً كأنه مساء البارحة .

كان القمر بدراً يغمر هذه الجبال والبقاع المنبسطة عند موطئها . وكانت أشعته تنصبُّ سيلاً على المياه فتخط فيها ممرّاً نورانيّاً وسيعاً . قضيت تلك السهرة وأنا أرقب أُلوف الأرواح الصامتة تغتسل فيه جذلى . وإذ همّت الباخرة بالمسير حمل إلينا النسيم مقاطع شدو كلّه شهيق ونحيب . كان النسيم يحمل ذلك الشدو متقطعاً كأنّه مثقل بعطور الكرمل من صعتر ونعناع وخزامى وخليط من شذا سائر الأعشاب البرية .

ما هو هذا الصوت ؟ أصوت وداع بعيد ؟ أهو يأس يتفطر في أواخر السهرة عندما يطوف الكرى في اللواحظ ؟ أهو نشيد للبحر أم نشيد من البحر ؟ أم هو إيذان بالرحيل للسفينة المتأهبة ؟ لم أعلم يومئذ . ولقد زاد هذا الجهل في تفخيم اللغز وإبهام لذاذته . ومرت أعوام قبل أن أعلم أن ذلك كان

صوت كمنجة – تلك الآلة الوترية التي هي أُعجوبة عذوبة وتفجُّع كأفعل حنجرة إنسانية شادية .

* * *

كنت أُراجع هذه الذكريات الحية وأنا أنظر من نافذة قاعة المائدة إلى جبل الكرمل الذي كانت السفينة تدور حوله في تلك الساعة الحارة – ساعة الظهر . فأجد تناقضاً بين وقت التذكر ووقت حدوث الذكرى ، وينيلني هذا التناقض سروراً ، ولكن الرّجل الذي ولته الآلهة أمر تعذيبي في هذين اليومين ؛ كان جالساً إلى يمناي كعادته في غرفة المائدة . فقطع عليّ سير خواطري بحديث آخر ، طويل كجميع أحاديثه . لعله كان الحديث ذاته يردده كل مرة ؟ لا لا ! إن فيه هذه المرة شيئاً جديداً . جاري يندب سوء حظه لأنّه عند المساء نازل في يافا حيث ينتظره أصحابه . بشرك الله بالخير يا جاري ! ومضيت أُهنئه بالسلامة قبل السلامة بخمس ساعات . فشكرني شكراً صميماً بأن قدم لي علبته المحبوبة ، فاغترفت منها هذه المرة برضى وإقرار بالمعروف كأني من منهل فضله أغترف .

وودعني جاري عند الغروب والزوارق تحتشد حول الباخرة الراسية . وكان متأثراً قليل الكلام ، ولكن سخي اليد ؛ لأنّه فتح علبة النشوق مرة أُخرى فتحة طويلة ، طويلة

كأحاديثه ، وظلت علبته مفتوحة حتى ابتعد إلى أطراف السفينة فأطبقها هناك وهرول ينزل الدرجات الخشبية .

عادت الزوارق إلى الشاطىء وهدأت الحركة على صفحة البحر فجاء الظلام مرة أخرى بحلكه المرصع بالأنوار وروعته التي تملأ النفوس تعبداً وخشوعاً .

الرحلة الثالثة

يافا — بور سعيد

هل خطر لك أن تعرف تاريخ ولادة أبي وأبيك وأبيه وأبينا وأبيكم وأبيهم ، أعني أبا الجميع ، آدم بالاختصار ؟ ألا فاسمع واعجب !

كانت الأرض خاوية خالية فجاءها آدم قبل مجيء المسيح بثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وثمانين سنة . وكان ذلك اليوم المجيد يوم الجمعة في ٢٨ اكتوبر الساعة ٦ صباحاً والدقيقة ١٢ .

هذا ما حدثني به جاري الألماني قبل الفراق في احدى محاوراتنا قائلاً إن عالماً جرمانيّاً قضى السنين الطوال في معالجة هذه العملية الحسابية التي يترتب عليها تاريخ النوع بأسره .

قلت : بورك في الألمان وعلمائهم ! وها إني أنتظر من فطنتهم حل مسألة أُخرى لا تقل أهمية عن عمر أبي الجنس البشري .

قال : وما هي ؟

قلت : يقال إن نوحاً البارّ بنى فُلكه الشهير في معامل مدينة يافا . وإنّه دخل ذلك الفلك هو وعائلته وسائر الحيوانات المختارة للالتجاء معه ، في هذه الميناء التي أمامنا ، ميناء يافا .

وترى أهالي « قاديشا » على الساحل الإسباني يقولون ذات القول عن مدينتهم، وينسبون هذا المجد إلى مينائهم . فهل لعالم ألماني أن يحل هذا المشكل وينبيء الناس ما إذا كان فلك جدنا نوح عليه السلام سوريّاً أم إسبانيّاً ؟

فوعدني مخاطبي باستنهاض أصدقائه من المؤرخين والعلماء . وأنا أعد القارىء بأن انبئه الخبر عندما تأتيني خلاصة هذا البحث الخطير .

* * *

أيقظني في صباح الغد صوت كبير دوى في البحر طويلاً حتى خُيِّل لي أنّه حطم الجبال الراسية في قعره . فنهضت مسرعة أنظر من النافذة . وإذا بأمطار غزيرة تتدفق والجو ملبد بالغيوم السوداء . وقد عبث البحر بالسماء فظهر غضبه قتاماً حتى تلاحمت أطرافه وأطراف الجو . فأسرعت بالنهوض لأني لم أر زوبعة في زماني .

وصعدت إلى ظهر السفينة فإذا جمال رائع . المياه تقاتل المياه ، والأمواج تكتسح الأمواج لأنّها تحسبها غيوماً . تكتسحها لعجزها عن التوصل إلى الغيوم المتراكمة في الجو . والغيوم تمازح البحر في علاها كمن يقول : لقد امتصتني حرارة الشمس من أطرافك أيّها البحر ، وأنت غافل ! فاحتمل الآن ضربات نقمتي لعدم اكتراثك بي . عند ذلك يدوي الرعد

في كبد الغيوم البعيدة ويرجع صداها الهائل على زوايا الغيوم اللاحقة بالأمواج والبرق يتلوى مخترقاً قتام الجو حتى إذا لمس صفحة المياه تلاشى تاركاً للنظر صورة جمال مرعب .

أخذت الغيوم قبيل الظهر تصغر شيئاً فشيئاً . وقد صغر حجمها بقوة الشمس فوقها تحرقها بحرارتها وتطعنها بحراب الأشعة . فهبط سقف الغيوم ، وتشقق تماسكه وتبددت جيوشه بفعل الأنوار المهاجمة من كل صوب .

ثغر كبير تفتّح في ظلام الجو . ومن بين الشفاه الملتهبة ناراً ونوراً سال على الكون نهر بهجة وضياء . ثم اتسع ذلك الثغر ، وتشققت الشفاه عن زرقة تحتجب ولكنها لا تغيب . وصفا الجو فسرحت غزالة النهار تجرُّ بتيه ودلال شعورها الطويلة الشاملة أطراف العالم ، ولا حياة لهذا العالم إلاّ بها .

. . . رأيت انقلاب الجو ، وصفاء الفلك ، وسكون البحر دون أن أتحرك كأن صاعقة انقضت علي . دهشة هذه العجائب سلبت مني القوى ، فلم يبقَ فيّ غير الحاسة التي تشعر وتسكن وتستسلم وهي سكرى .

يافا

كالملكة على عرشها تستوي يافا على شطها . وفي البعيد تدور حولها الحدائق والأشجار كهالة سندسية . وتنطلق منها

أرواح البرتقال والليمون مختلطة برائحة المرارة البحرية القوية .

من أطراف يافا تتفرع الطرق أمامنا إلى الداخلية فأراني سائرة عليها بالتذكار .

هذه طريق تنتهي إلى بيت المقدس المكفنة بجلال تاريخها وبالكآبة الدهرية المخيمة على آكامها وسهولها . وتلك طريق تسير نحو الخليل وغزة . وطريق أخرى تمضي إلى السامرة الجثوم في صدر جناتها الشائقات ، وفي أهوائها ترفرف أرواح الفل و« اليوسف أفندي » كأجنحة عطرية . وكأن السامرة تتجمع في تلك الغوطة لتصغي إلى نشيد المياه المتدفقة، ذاك النشيد المتواصل وفي حلاوته تهليل وتكبير .

ووراء السامرة جبال كثيرة الأخربة وسهول عديدة الآثار وقرى كأنها مقاييس خطوات الزمان . ثم جانين القائمة في مدخل مرج ابن عامر ساحة قتال الفلسطينيين الكبرى حتى أيام نابوليون .

من هنا تسير السبيل إلى الناصرة ، فقانا الجليل، فقرون حطين القائمة بين جبلي الطور وحرمون ، والمشرفة على بحيرة طبريا الحزينة ، ثم طبريا . ثم تتوغل الطريق في أنحاء يسكنها عرب المضارب ذوو العيون السوداء الطويلة ، حتى قيصرية فيليب القائمة عند قدم حرمون « جبل الشيخ » . ثم الصحراء . ثم الواحات . ثم دمشق واحة الواحات و « مليكة الصحراء ».

من كل تاريخ يافا الخطير أذكر الآن أمرين صغيرين : أولهما أن المراكب التي أرسلها حيرام ملك صور مشحونة بخشب أرز لبنان لبناء هيكل سليمان رست في ميناء يافا ، ومنها نقل الخشب إلى أورشليم . أذكر هذا الأمر هنا لأني أتخيل أن وقوع بعض الأرزات سهواً (وهذه الأرزات لا تزال في قعر الماء) هو ما يجعل هذه الميناء صعبة العبور ، شكسة الصخور ، حادة الأنواء.

والأمر الآخر هو حكاية النبي يونان الذي ابتلعه الحوت هنا حيّاً ، وبعد أن أقام في جوفه ثلاثة أيام مضى يقذف به على ساحل جونية بلبنان — على ما يروون .

* * *

أقبل المساء فتحولت السفينة عن الشواطىء السورية وجاء النسيم يحمل نغمات الوداع من حدائق يافا ومعها أريج البرتقال والياسمين . والكنار الذي ابتعته عند الظهر من باعة يافا أرسل نشيده الشجي كأنّه شعر بالرّحيل ، نشيداً لن نسمعه طويلاً ، لأن هذا الكنار سنفقده غداً فيكون البحر العظيم ضريحه .

مضت السفينة نحو الشط المصري ، ففتحت كذلك سفينة أحلامي شراعها ، وأخذت تشق بحر هجسها وتخيلها .

وغرد البلبل ، فقلت : وداعاً يا آخر سواحل سوريا ! إني أحمل منك في مسمعي تغريداً ، وفي عينيّ جمالاً ؛ وفي روحي صبابة وانتعاشاً .

كناري

طائر صغير نسجت أشعّة الشّمس ذهب جناحيه ، وانحنى الليل عليه فترك من سواده قُبلة في عينيه ، ثم سطت عليه يدُ الإنسان ، فضيّقت دائرة فضائه ، وسجنته في قفص كان بيته في حياته ، ونعشه في مماته .

طائر صغير أحببتُه شهوراً طوالاً ، غرّد لكآبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فآنسَها ، جاور روحي فآخاها ، غنّى لقلبي فأرقصه ، نادم وحدتي فملأها ألحاناً .

امتزج ذكره بدقائق حياتي ، فأصبح عندي بمنزلة صديق لا يُقرّبني منه التفاهمُ الروحي ، بل يُعزّزه لي حضوره الدائمُ ، وإنْ لم يبالِ هو بحضوري ، وصوته الرّخيم ، وإن لم يغرد إلاّ لأن التغريد من طبعه ، وسروره الذي لا يعرف الكآبة ، واصطباره على ضيق الفضاء ، واقتناعه بما قُدّر له من النور والهواء .

عندما كانت تُبكيني الآلام ، كنت أُريه منديلي مبلّلاً بالدموع ، فيعرض عني . إن الدموع تعقب ظُلمة الأحزان ، كما يعقب الندى ظلام الليل ، وروح الطيور نور مغرد ، فكيف يفهم النور الظلام ؟ كنت أنظر إليه مشيرة بإصبعي

إلى الأثير البعيد ، لعلّي أرى منه زفرة تُنبئني عن لوعة في قلبه ، غير أنّه يقفز على قضبان عشّه الصغير غير مبال بي .

وإذ كنت آتيه بالأزهار ، نازعة عنها وريقاتها ، فارشة إياها على أرض القفص ، لعلّي أرضيه ، كان يدوسها بإهمال مواصلاً تغريده ، كأنه فيلسوف لا يكترث للصّغائر وإن كانت جميلة المظاهر ، ولا يعمل في حياته إلاّ ما يشغل به فكره.

في الصباح كنت أفتح عينيّ ، فيستقبلني بالغناء ، وتسيل موسيقى ألحانه على قلبي فتذيبه وتسكره في آن واحد .

وعندما كنت أجلس للدرس والتحبير فتشمئز نفسي أحياناً من عبوس الكتب ، ويثقل قلمي في يدي ، كأنه صولجان تنازل عن ملكه ، كان كناري يأخذ في الزقزقة ، وتأتي جماعة طير من الخارج وتضم تغريدها إلى تغريده ، كما تمتزج الألحان في طيات الأمواج ، فتبتسم الأفكار على صفحات الكتب أمام ناظري ، ويتمايل اليراع بين أناملي تمايلَ الصفصاف بقرب الغدير ، وتنجلي الغيوم عن فؤادي ، وتطرب روحي .

في المساء كان يصمت كناري إجلالاً لقداسة الظلام ، فيخفي رأسه بين جناحيه ، ويجمد جمود المفكر .

والآن أنظر إلى القفص ، لقد صمت الطائر المغرّد ، والشّعاع المحيي تجمّد . مات الصغير المغرد ، مات صغير حشاشتي ، مات قبل غروب الشمس ، وقبل انقضاء الربيع .

كن سعيداً

في هيكل الأشجان الإنسانية وقف الزعيم الأكبر يخطب في القوم فسمعته يقول :

« إذا كنت غنيّاً كن سعيداً ! لأن مزاولة الأمور الخطيرة هُيّئَتْ لك وكنت مشكور الصالحات مرجوّ الجميل . لقد عزّ جانبك ، ومُنعت حوزتك ، ونُشر رواق العز فوق ذمارك ، فتمّ لك وجه من وجوه الحرية والاستقلال ، وإن كنت فقيراً كن سعيداً ! لأنك سلمت من شلل معنوي ابتلي به من دانت لرغبته جميع المطالب ، ووقيت ما عُرّض له السريّ من حسد وكره ٍ ، فلا تتلظّى الصدور لنعمتك ولا يُنْظر إلى متاعك بعين مريضة .

« إذا كنت محسناً كن سعيداً ! لأنّك ملأت الأيدي الفارغة ، وسترت الأجساد العارية . وكوّنت من لا كيان له فرضيت عن نفسك وودت إسعاد عشرات ومئات لتتضاعف مسرتك النبيلة الواحدة بتعدّد المنتفعين بأسبابها . وإن عجزت عن الإحسان كن سعيداً ! فقد أجّلت ساعة تشهد فيها نكران الجميل ممن صانعت ، فاتخذ المعروف سلاحاً يهددك به حاسباً

التجني شجاعة ، والسفاهة حذقاً . تلك الساعة لا بد من مرورها فتتوتّر لها أعصابك ، ويفور سخطك ، وتقسو عواطفك ، ويجفّ منهل كرمك ، وتحتقر الإنسان وتيأس من إصلاحه قبل أن تصل إلى قمة الغفران السامي والتغاضي الحكيم .

« إذا كنت شابّاً كن سعيداً ! لأن شجرة مطالبك مخضلة الغصون ، وقد بعُد أمامك مرمى الآمال ، فتيسر لك إخراج الأحلام إلى حيز الواقع إذا كنت بذلك حقيقاً . وإذا كنت شيخاً كن سعيداً ! لأنك عركت الدهر وناسه وأُلقيت إليك من صدق الفراسة وحسن المعالجة مقاليد الأمور : فكل أعمالك إن شئت منافع ، والدقيقة الواحدة توازي من عمرك أعواماً لأنها حافلة بالخبرة والتبصر وأصالة الرأي ، كأنّها ثمرة الخريف موفورة النضج ، غزيرة العصير ، أُشبعت بمادة الاكتمال والدسم والرغبة .

« إذا كنت رجلاً كن سعيداً ! لأن في شهامة الرجولة يتجسم معنى الحياة الأكبر . وإذا كنت امرأة كن سعيداً ! فالمرأة منشودة الرّجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعذوبتها مستودع تعزيته ، وبسمتها مكافأة أتعابه .

« إذا كنت رفيع الحسب كن سعيداً ! فقد فزت بثقة الجماعة دون أن يوصي بك أحد . وإن كنت وضيع النسب كن سعيداً ! لأنّه خيرٌ لك أن تكون مؤسس عيلتك ورافع

عمادها الذي تُعرف به وتفاخر بذكراه ، من أن تكون أحد أبنائها المرغمين بطبيعة الحال على حمل اسمهم ولا فضل لهم بإعلائه .

« إذا كنت كثير الأصدقاء كن سعيداً ! لأن ذاتك ترتسم في ذات كلّ منهم . والنجاح مع الصداقة أبهر ظهوراً ، والإخفاق أقل مرارة . وجمع القلوب حولك يستلزم صفات وقدرات لا توجد في غير النفوس ذات الوزن الكبير ، أهمها الخروج من حصن أنانيتك لاستكشاف ما عند الآخرين من نبل ولطف وذكاء . وإذا كنت كثير الأعداء كن سعيداً ! لأن الأعداء سلّم الارتقاء ، وهم أضمن شهادة بخطورتك . وكلما زادت منهم المقاومة والتحامل ، وتنوّع الاغتياب والنميمة ، زدت شعوراً بأهميتك ، فاتعظت بالصائب من النقد الذي هو كالسم يريدونه فتّاكاً ولكنك تأخذه بكميات قليلة ، فيكون لك أعظم المقويات . وتعرض عما بقي ، وكان مصدره الكيد والعجز ، إعراضاً رشيقاً . وهل يهتم النسر المحلّق في قصيّ الآفاق بما تتآمر له خنافس الغبراء ؟

« إذا كنت صحيحاً كن سعيداً ! فقد استبان فيك توازن الناموس الكلي وانسجامه ، وأُهلّت لمعالجة المصاعب ودحر العقبات . وإن كنت عليلاً كن سعيداً ! لأنّك مسرح تتقاتل فيه قوتا الكون العظيمتان ، فالغلبة لما تختار منهما ، والشفاء

موقوف على ما تريد .

« إذا كنت عبقريّاً كن سعيداً ! فقد تجلّى فيك شعاع ألمعي من المقام الأسنى ، ورمقك الرحمن بنظرة انعكست صورتها على جبهتك فكراً ، وفي عينيك طلسماً ، وفي صوتك سحراً . والألفاظ التي هي عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع ، صارت بين شفتيك وتحت لمسك ناراً ونوراً تلذع وتضيء ، وتحرق وتهنيء ، وتخجل وتكبر ، وتذلّ وتنشط ، وتوجع وتلطّف ، وتسخط وتدهش ، وتقول للمعنى « كن ! » فيكون . وإن كنت خاملاً كن سعيداً ! لأن الألسنة لا ترهف حدها لتذكرك ، والأنظار لا يستعر فيها لهيب التفحص وحب المنافسة إذ تتجه إليك . هاك القمة فاقتحمها إن كنت كفؤاً . وإلا فاقنع بأنّك جزء مهم من أجزاء الكون تستعملك الكفاءة وقوداً . فالإيوانات الباذخة لا تقوم بغير الحجارة الصغيرة ، وأنت متمتع براحة لا ينعم بها من لا ترتوي شفتاه بغير ماء الحياة ولا تغتسل روحه بغير سيول الإلهام .

« إذا كان صاحبك وفيّاً كن سعيداً ! لأن الأيام حبتك بكنز من أثمن كنوزها . وإن كان خائناً كن سعيداً ! لأنّه لم يكن على استعداد لاستماع أمثولة خفية تلقيها عليه نفسك . ولا يغادر امرؤ حظيرة المحبة إلا ليفسح مكاناً لمن هو خير منه وأجدر .

« إذا كنت حرّاً كن سعيداً ! ففي الحريّة تتمرّن القوى وتتشدد الملكات وتتسع الممكنات . وإن كنت مستعبَداً كن سعيداً ! لأن العبودية أفضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحريّة ، وتقف على ما يصيّرك لها أهلاً .

« إذا عشت في وسط يفهمك ويقدرك كن سعيداً ! فهناك اكتسبت كل يوم شباباً جديداً وقوة جديدة ، ونمت روحك ثم نمت حتى أذهلتك منها الآفاق والبحار . وإن عشت في وسط متقهقر منحطّ ، أيّها التعس ، كن سعيداً ! لأنّك في حل من أن تخلق لك جناحين تطير بهما فوقه ، إلى حيث تبدع من أشباح روحك عالماً حوى قوتاً لجوع فكرك ، وشراباً لظمإ جنَانك .

« إذا كنت محبّاً محبوباً كن سعيداً ! فقد دلّلتك الحياة وضمتك إلى أبنائها المختارين ، وأرتك الألوهية عطفها في تبادل القلوب ، واجتمع النصفان التائهان في المجاهل المدلهمة فتجلت لهما بدائع الفجر وهنأتهما الشموس بما لم تهتد بعد إليه في دورتها بين الأفلاك ، وأفضى إليهما الأثير بمكنون أسراره ، لذلك هما يتأملان حيث يتصابى الخالي ، ويصمتان حيث يتكلم ، ويمزحان حيث يجدّ ، ويتفرسان في خطوط البقاء حيث لا يلمح هو خيالاً .

« وإن كنت محبّاً غير محبوب كن سعيداً ! لأن النابذ

يحب المنبوذ في أعلى طبقات كيانه — حبّاً لا يدانيه افتتانه بمن يهوى . والهجران حالة جمة المعاني والألغاز ترقّق ما ضخم من الرغبات وتصفي ما عكر من الانفعالات حتى يغدو الفؤاد شفافاً نورانيّاً متلألئاً كآنية تتناول فيها الآلهة كوثر الخلود . ولسوف تفوز بمن تريد إن لم يكن في تلك الصورة الإنسيّة المتباعدة ففي سواها . تهيّأ للحب مهما أثقلتك المشاعر لأن للحب هبّات وسكنات ، وأنت لا تعرف ساعة مروره . كن عظيماً ليختارك الحب العظيم ، وإلاّ فنصيبك حبٌّ يسفّ التراب ويتمرغ في الأوحال ، فتظل على ما أنت أو تهبط به ، بدلاً من أن تسمو إلى أبراج لم ترها عين ولم تخطر عجائبها على قلب بشر ، لأن هياكل مطالبنا إنّما تقام على خرائط وهمية وضعتها منا الأشواق .

«كن سعيداً ! لأن أبواب السعادة شتى ، ومنافذ الحظ لا تحصى ، ومسالك الحياة تتجدد مع الدقائق . كن سعيداً دواماً ، كن سعيداً على كل حال ! »

* * *

انفضّ القوم فإذا الجماعات تقف عند بقية جدار خارج الهيكل لتنتحب وتبكي ، ومضى غيرها في سبيله ضاحكاً هازئاً فنظرت إلى شبح انتصب قربي نظرة استفهام فقال : « أنا روح الخطاب جئت أرى تأثيري في الناس » .

قلت : « إذن أنت تعلم ما هذا الذي يبكي الناس عنده » .

قال : « هذا جدار الدموع » .

قلت : « وهل هؤلاء يهود وهل نحن في أورشليم ؟ »

فقال : « للإنسانية كما لليهود « جدار دموع » تبكي عليه وتتحسر » .

قلت : « ولماذا يبكي هؤلاء بعد تلك الخطبة المعزية الموحية الرجاء ، خطبة السعادة الجميلة ؟ »

قال : « منهم من يبكي لأنّه لم يسمعها من قبل ؛ ومنهم لأنّه سمعها قبل الآن ولم يستفد ؛ وآخر لأنّه استفاد أياماً ثم تغلّب عليه المحيط وجرّته الوراثة بأثقالها الباهظة إلى هوة القنوط ؛ وغيره يبكي بكاء عصبيّاً لأن الباكين يحيطون به ولو ضحكوا ورقصوا لكان أول المقلدين ؛ وغيره ليظهر أنّه ذو نفس حساسة تستوعب كل تأثير صالح ؛ ويبكي غيره لأنّه يرى في الجدار المحطم صورة لآماله الذاوية وهو من الذين يندبون حيال متراكم الأخربة ، ومندثر الديار ، ومتعفي الآثار » .

قلت : « وأولئك الضاحكون ؟ »

قال : « هم ذوو الأذهان المحددة التي لا تعترف بما لا تفهم ، وتهزأ بكل ما لا تعترف . إنّهم أحق بالإشفاق من الباكين » .

قالت : « وهناك خيالان لا يبكيان ولا يضحكان ؛ رجل وامرأة يسيران جنباً إلى جنب بخطوات هادئة بطيئة منحني الجبهة ؛ وفي عيونهما تتتالى دوائر الأفكار ، أتدري من هما ؟ »

فرنا إليهما الشبح وقال : « هما الأرض المخصبة ، هما الشعلة المقدسة . هما اللذان فهما واستفادا » .

فقلت مكتئبة : « أسفاً على الخطاب البليغ تسمعه الجماهير الغفيرة فلا يستفيد به سوى اثنين ! »

فتألق وجه الشبح بنور سماوي وقال : « بل ما أنفعه خطاباً هو في هذين الروحين غلّة للدهور ، وفي هذين الفكرين مجدّد للقديم ، وفي هذه الأيدي مشعل يتطاير منه الشرر فتتقد به شموس الأفلاك وشموس الأذهان . بورك به خطاباً ، بورك به ! »

وغادرني الشبح وسار إلى ذينك الخيالين فنشر من كتفيه جناحين خفيين وحلّق فوق رأسيهما يقودهما ويرعاهما .

لماذا تبقى العربية حية؟

من هو المنبّه إلى تكوين هذه المدنيّة القومية ؟

هو فتى كان بالأمس يقصد الشام في عير قريش للتجارة ، وهو اليوم محمد النبي العربي ورسول المسلمين .

أما مصدر تلك الحضارة فهو القرآن .

لقد ذاع القرآن بسرعة لم يظفر بها كتاب قبله ولا بعده . ولم يقصر انتشاره على الشعوب التي نزل بينها وتوافقت تعاليمه ومدركاتها وطبيعتها . بل خضعت له بعدئذ أمم لها من حضارتها السحيقة ما قد كان يُعتَدّ كافياً للتفلّت من سطوته ورفض الإذعان لأحكامه .

ولقد أوجد القرآن ديناً عربيّاً ، ودولة عربية ، وأحكاماً عربية ، وآداباً عربية صارت كلها أجزاء قومية واحدة ربطت شعوباً لم تكن العربية لغتها . لذلك قال جماعة من المؤرخين : إن التمدن العربي كان تمدناً اسلاميّاً صرفاً .

والقرآن مصدر جميع العلوم التي عني بها المسلمون في أوج حضارتهم . فلتفسير آياته وسوره وُجدت علوم الكلام وعلوم المنطق . ولتفهّم ما فيه من نظام وتشريع وُجدت

علوم الشرع والفقه . ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية .

ثم أليس الجغرافيون الأُول أو علماء المسالك والأمصار ، هم الذين مضوا من أقاصي إفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ، ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير المألوف ؟ ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آي القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه ؟ ألم تطلب أرصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعد الحج والصوم ؟ ألم تستدع مسائل الوقاية الصحّية والنظافة اهتمام الأطباء ، كما ظلّت بعد تحثهم على البحث والتنقيب ؟

نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم إلاّ لأن آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض ، أو شرح قول مستغلق . ومذاهب علماء الكلام هي التي نبهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساتذة الفلسفة الحديثة .

سبق القول أن قد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهباً سياسياً بين شعوب مختلفة ، أي اليونانية واللاتينية . فقد كانت اللاتينية مستعملة من كمبانيا في إيطاليا الجنوبية إلى الجزر البريطانية ، ومن نهر

الرين إلى جبل الأطلس . واستُعملت اليونانية من أقاصي صقلية إلى شاطىء دجلة والفرات ، ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة . لكن ما أضيقهُ انتشاراً إذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدّت إلى إسبانيا وإفريقيا حتى خط الاستواء ، وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد التتر ! أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلاميّ ، وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال ، فقد أوجدت تبديلاً محسوساً في الفارسية والهندية والهندستانية والتركية ولغات إفريقيا ولهجات التتر . كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو المقتبسات منها ، كلمات كثيرة ذات أصل عربيّ .

لقد عُدّت اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنيّتيهما . فما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدنيّة العرب بقرون سبعة ؟

إن الذي كان باعثاً على تكوين المدنيّة العربية هو هو الذي ما زال حافظها إلى اليوم : هو القرآن ! . .

لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الإسلام حيّاً وما دام في أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون .

العجائب الثلاث*

كان بسكال يقول : إن كلمة « أنا » غير مستحسنة ؛ ولكن إذا سمحتم لي أنْ أبدأ بالكلام عن شخصي ، قلت : إن في نفسي ابتهاجاً .

قد تتساءلون لماذا ، فانظروا إلى اجتماعنا هذا تروا فيه الفرد الإنساني مكملاً وناموس الإنصاف نافذاً .

لم يمرّ وقتٌ طويل على يوم كان الرّجل الشرقي منكراً على المرأة ما كان يسميه « شر الدرس » ؛ يوم كانت المرأة عبدة تخفي جهلها وذلها تحت الأثواب الحريرية ، وتنسى قيودها الدهرية لاهية بالأساور والجواهر . ثم حرّرها الرّجل قليلاً قليلاً ، وصار يدعوها إلى الاجتماعات العالمية ، والسهرات الراقصة ، حاسبها زينة من الزينات المكملات لتلك الحفلات اللامعات . ولكن اليوم انظروا ! انظروا كيف علّت مكانة المرأة لديكم ! صرتم تدعونها إلى حفلاتكم الأدبية وتعطونها فيها مكاناً رحيباً . بل صرتم جاعلين للفتاة الشرقية صوتاً —

---

* ألقيت في الحفلة التي أُقيمت في فندق كونتيننتال مساء الجمعة ٢٨ نيسان (أبريل) سنة ١٩١٦ احتفاء بمرور ٢٥ سنة على إنشاء مطبعة المعارف .

صوتاً صغيراً ، ولكنهُ صوت على كل حال ـ بين أصوات الشعراء والخطباء ، منشطيها إلى ذلك بقوة ، ومرغميها على تناسي ما هي عليه من الضعف والقصور .

هذا للمرأة السافرة . أما اختنا المحجوبة فهي كذلك مستشعرة بنسمة الحياة الجديدة . من خلال نقابها الشعري اللطيف ، تفتح عينيها كبيرتين على آفاق النور ، وفي نفسها تتولّد ميول مندفعة نحو وجهة الارتقاء ، ورغباتٌ تائقات إلى مظاهر الكمال .

الرجل موجد الحركة النسائية عندنا ، والرّجل منشطها ، والرّجل مؤيدها . كثيرون من الأفراد يدعون إليها ، والرؤساء يعطفون عليها .

ولقد جاءتنا صحف الأسبوع بتعريب حديث للسلطان في تعليم الفتاة ، مع أحد مكاتبي صحف الفرنجة . إنّ هذا الحديث يزيد في قوة تأثيره العملُ المؤيِّد ، لأنّكم تعلمون أنّ أول فتاة تشتغل بالأدب في السلطنة المصرية هي البرنسس قدرية هانم ابنة حسين الأول ، فتاة لا يصرفها الجاه العالمي والثروة المادية عن ثروة الفكر وجاه التفكير .

إننا نحب الزينة واللهو والجواهر ، والسهرات الراقصات ، ولكننا نحبُّها الحبّ الذي تستحقه فقط ، وفي نفوسنا ميول أشرف منه وأعظم . عرفتم فينا ذلك ، وذكرتم أنّ الاستعباد

قد ينقلب ثورةً ، ففوضى ، وأنّ ما من غضب أشد خطراً من غضب الضعيف إذا استشعر يوماً بقوته الكامنة . ذكرتم أنّ الطاعة الإجبارية ، طاعة الآلة البكماء ، لا قيمة لها ، وأنّ الطاعة الاختيارية تنمّ عن ثقة وصفاء نية وتُنتج خيراً . ذكرتم أنّ الخوف لا يقطن إلا في نفوس متصاغرة قد استنامت إلى الامتهان ، ولا يولّد إلا مودةً مكذوبةً ورياء ، وأنّ الشعور بالحرية وحده يكوّن عاطفتي الاعتبار والاحترام ، وهما أُسٌّ متينٌ لكل ودادٍ شريفٍ مستديم .

ذكرتم أن لا قيود للنفس العالية إلا قيود الأخلاق الطيبة ، ولا جدران إلا جدران الحرية ، تلك الحدود التي لا تهدم لأن المرء يضعها لنفسه اختياراً ، اختياراً مشتركاً بين اللائق والواجب . . . ذكرتم كل ذلك ، وكان قد نسيه رجل العصور الماضية ، فقمتم تنادون بتعليم الفتاة وتحرير المرأة .

أيّها السادة ! لقد كنتم محسنين ، وكنتم خصوصاً منصفين .

هذه حقوق للمرأة ، حقوق ابتدائية ، وإنْ كانت جوهرية ؛ ولكن ، يُرضي المرأة أنْ تتناول هذه الحقوق كنعمة من يدِ الرّجل لأنّ التمتع بفضل القوي الكريم عز ودلال .

أيّها السادة والسيدات ،

لئن كان الإنسان أُعجوبة الخليقة ، كما يقولون ، وكان

فكر الإنسان أعجب ما في الإنسان ، فإنّ هذا الفكر قد أبدع عجائب ثلاثاً جعلت للحياة معنى ورونقاً جديدين ، وتلك العجائب الإنسانية هي : الكلمة والحرف والمطبعة .

من يستطيع أنْ يتصور الحياة خالية من الكلام ؟ نعم ، السكوت جميل ، وله أسرار هي حيناً مرعبة كظلمات اللجج وآناً لامعة كمُقَل الكواكب في الدجى . ولكنه كلامٌ في ذاتِه ، كلام تهمس به النفس بلا صوت ولا حركة ؛ وما السكوت القهريّ إلا بكمٌ أو نوع من البكم .

يجهل التاريخ أيّ الشعوب تكلم أولاً وكيف تكلم . على أنّ سادتنا الفلاسفة جعلوا هذه المسألة موضوع مناقشات شتى بدأت في القرن الخامس قبل المسيح مع « ديموقريطس » الذي كان يضحك دواماً من الجنون الإنساني ، و « هيراقليتس » الذي كان يبكي حزناً على هذا الجنون ؛ ولم تنتهِ مع رينان الذي كان يكتفي بالابتسام المبهم قائلاً : « لكل مسألة وجْهان » . وفي خلال القرون الطويلة التي مرّت بين ديموقريطس ورينان ، قال الفلاسفة أقوالاً جمة هي كأقوال هذه الطائفة ـــ طائفة أنصاف الآلهة ـــ عادةً ، كثير منها جميل ومفهوم ، والكثير الآخر جميل و . . . كأنّه مفهوم ؛ خلاصتها تقسم إلى قسمين : ففريق يقول إنّ الكلمة نتيجة

ذكاء الإنسان إذْ شعر باحتياج إلى التعبير عما يجول في نفسه ، فجرّب الحركات أولاً ، وآهات الألم ، وعلامات الارتياح ، ولما أنْ شعر بنقص هذا التعبير عمد إلى إبداع الكلمة واستعمل الصوت في إبرازها . والفريق الآخر يقول بل الكلمة استعداد غريزي في الإنسان ، هي عمل الطبيعة بالذات ، وما تعبّر الكلمات إلاّ عن جوهر المعاني والأشياء . وقد زادت المدرسة اللاهوتية على هذا في القرن الثامن عشر أن الكلمة أعظم من أنْ تُحسب استعداداً غريزيّاً لأنّها وحي إلهي .

وسواء كانت الكلمة ابنة الطبيعة أم نتيجة الذكاء ، فهي على كلٍّ مرآة الفكر وملخصتهُ ومهذبته . عندما تأخذ خطوط التصور بالارتسام على صفحة الذهن فتتتالى الصور ، وتتوارد المعاني متزاحمة بلا ترتيب ، تكون حالة الفكر آنئذٍ حالة غليان أو طوفان . ولكن إذا أردنا اطلاع الغير على ما هو جارٍ في خاطرنا انتخبنا من الصور ما كان أوضح بروزاً ومن المعاني ما كان أقرب مجانسة إلى شعورنا ، فجعلناها كلاماً ، جعلناها وجوداً يُلمَس بحاسة السمع ، تنطلق ذريراته إلى فكر محادثنا . قاهرة تلك الهوّة المحفورة بين البشر ، هوة السكوت والتباعد التي تجعل الإنسان غريباً عن الإنسان ، فتؤلّف صلة قرابة بين الروحين ، صلة التفاهم ، ويصبح

الغريبان متعارفين .

تكلم الإنسان فأراد تدوين تذكاراته ، فاستخدم ما عنده من قوى الملاحظة والتقليد في حالتهما الأوّلية الخشنة ، وأنشأ يرسم كلّ ما يقع تحت حسه ، ومن هنا تولدت الهيروغليفيات القديمة الخمس .

مَن ، يا ترى ، كان مستخلصاً من تلك الحروف الصورية الأبجدية الأولى التي تناقلتها أكثر اللغات المعروفة لدينا ؟ هذا موضوع مناقشة ودية بين المصريين والسوريين . على أنّ الشائع أنّ الفينيقيين كانوا فاعلين . فحملها كبير تجارهم « قدموس » إلى بلاد الإغريق في القرن السادس عشر قبل المسيح ، ثم نسخها الرومان عن الإغريق ، وتناولتها اللغات المتفرعات من لغتهم كالإيطالية، والإسبانية ، والبورتوغية ، والفرنساوية ، والإنجليزية ، والألمانية كذلك . لأنّ الألمان يكتبون لغتهم على نوعين ، الكتابة الألمانية القوطية الأصل ، والكتابة التي يسمونها لاتينية Die Lateinische Schrift .

ومن أبجدية « قدموس » جاءت أبجديات اللغات الساميّة من عبرية وكلدانية وسريانية ، وأبجدية تلك اللغة العزيزة التي لم تفقها الإغريقية واللاتينية جمالاً وانتشاراً . اللغة التي سُمِعت نبراتها تحت الأعلام الخافقات في إفريقيا حتى خط الاستواء ، وفي آسيا الجنوبية حتى جاوه،وفي روسيا إلى ما وراء غاسا !

لغة عنترة والمتنبي ولغة الموشحات الأندلسية ! اللغة التي همسنا بكلماتها الأولى في المهد أطفالاً ، ولسوف تكون منها كلمة وداعنا الأخير . في صدرها تذكاراتنا وفي صدرها آمالنا ، اللغة العربية !

تكلم الإنسان وكتب ، فأراد تخليد معلوماته ، وكانت المطبعة آلة التخليد . وكما أنّ الشرق كان موجد الأبجدية كذلك كان الشرق سابقاً إلى استعمال الحروف المطبعية .

استعمل الصينيون الاكسلوغرافيا (أي الطباعة على حروف الخشب) قبيل القرن السادس ، وانتقل هذا الفن إلى أوروبا في القرن الثاني عشر ، وظلوا يستعملونه هناك على علاته تقريباً إلى القرن الخامس عشر ، ذلك القرن الذي رأى الحروف المعدنية المتحركة وآلة الطباعة الأولى . ولكي ينصف التاريخ بين الرّجلين اللذين أحسنا إلى العالم فقد قسم الفخر بينهما ، وقال إنّ « كوستر » الهولندي كان موجد الحروف المطبعية المتحركة ، وإن « جوتمبرج » كان مخترع آلة الطباعة ومنيل الحرف دقته الفنية الابتدائية .

هذه هي العجائب الثلاث التي تعرفون أيّها السادة والسيدات . ولا سبيل إلى تخليد العجيبتين الأوليين إلاّ بواسطة العجيبة الثالثة . كذلك تقهر الآلة المعنى ، وتنتقم المادة من الروح ! إن الفُنون جميعاً من رسمٍ ونقشٍ وحرفٍ وهندسة

في حاجة إلى المطبعة ، لأنّها تخلد بدائعها وتعمل على ترويجها . تحتاج إليها الموسيقى ، ولا أعني الموسيقى العربية لأنّها كلّها ألحان (Mélodies) متراوحة بين السيكاه والنهاوند والحجازكار . . . إلخ . ألحان كالنفس الشرقية ، عميقة حزينة ، ولكنها بسيطة تتناولها الأذن الموسيقية بسهولة كلية ، وبعد تمرين قليل أو كثير ، توقعها بإتقان على العود أو على أي آلة شرقية أخرى . ولكني أعني الموسيقى الغربية ، وأهمّ قسم فيها ما يسمونهُ (Harmonie) . وثروة هذه الموسيقى وقيمتها في السوناتا ، والكانتاتا ، والأوبرا ، والسمفونيا وأمثالها ممّا لا يمكن نسخه بسرعة ووفرة ، وجعل اقتنائه ميسوراً للجميع إلاّ بواسطة المطبعة .

لكنّ المطبعة ضرورية خصوصاً لتخليد الكتاب . الكتاب ! سنيّ المواهب ، مفجّر ينابيع النُّهى ! الكتاب ! ذلك الصديق الأمين . تلك الثروة التي لا تفنى ، تلك القسوة الصامتة ، المهيبة ، المهذبة ، التي لا تعرف جدالاً . ما أعذب عبوس الكتاب في نفس محبّ الكتاب ! وما أخلصه جوهراً وأكرمهُ أستاذاً ، الكتاب الذي يرفعنا فوق صغائر الحياة ، ويعلّمنا كيف نُنمي فينا أشرف القوى الإنسانية ، الإخلاص والذكاء والإرادة ؛ ويقودنا قليلاً قليلاً إلى أعلى ذرى الإدراك والعرفان ، إلى أولمبس العظمة الشمّاء حيث أيوب ، وأسخيلوس ،

وشيشرون ، ودانتي ، وسرفانتس ، والمعري ، وشكسبير ، وكنت ، وهيجو ، يسكبون في فكرنا أفكارهم ، وتصير نفسنا كبيرة بلمس أرواحهم فتتسع وتتسع ، ثم تتسع حتى تحضن الفضاء !

اليوم عيد مطبعة المعارف الفضيّ . ولسوف تمرّ بها أعياد شتى من الذهب ، والزبرجد ، والياقوت ، والماس ، إن شاء الله ! تُظهِرُ في خلالها لمحبّي الحياة العقلية من تلك الكتب النفيسة التي لديها سرّ انتخابها وسرّ إتقانها . تلك الكتب التي على الحرب ، وعلى الوجع ، وعلى الفاقة ، وعلى الظلم المحتّم في الحياة ، وعلى الدماء والعبرات ، وعلى الشقاء ، وعلى اليأس ، وعلى كلّ بقعة سوداء تعكر سماء الإنسانية ، تضع شعاع نور باهرٍ منبعث من كوكب الفكر الخالد !

من رسائل مي :

إلى باحثة البادية

باحثة البادية هي ملك حفني ناصف الكاتبة المصرية المعروفة وإحدى المجاهدات البارزات في سبيل تحرير المرأة. كتبت عنها مي مؤلفاً عنوانه « باحثة البادية » وقبل أن تتعرف إليها كتبت إليها هذه الرسالة (سنة ١٩٠٢) :

ترنّمت باسمك قبل أن أعرفك ، واتخذت ذكرك عنواناً لنهضة المرأة المصريّة قبل أن أطالع مقالاتك لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك . غير أنّي عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات فيها خُيّل لي أنّي أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجّعة .

ثلاث سنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظة بين دفّات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم . لكن سرّها ما زال مترقباً يداً تلمسه ، مستعدّاً لمناجاة نفس تتلمّسه .

سنوات ثلاث فيها مشت البشريّة خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجماجم ، منشدة أهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل ، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف ،

ودماء حياتها تجري أنهاراً في سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان .

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد صدمات السياسة والاقتصاد والأطماع المتزايدة . فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها الضعيفة بإهمالها وتهاونها . وقد جاش لذلك كلّ ما في صدر الإسلام من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان .

كلّ ذلك ومصر مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها . كلّ ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى . صخور التقاليد القديمة تدمي أقدامنا الجديدة ، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للتمس أشياء نظنّها موصلة إلى حياة نريدها عظيمة. والسراب الجميل اللامع في صدور المستقبل غير المحدود يستدعينا آمراً كأنّه نظرة عين فتانة ، فنجري في الصحراء ولا ندري إلى أين المصير !

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً . عائلتنا لا تزال على ما كانت عليه ، وأفكارنا لم تتغيّر إلاّ قليلاً ، وعواطفنا ما برحت حائرة بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندّعي أنّنا نعلم وما نجهل أنّنا لا نعلم ! غير أن الأصداء الخفيّة ما زالت ترجّع همس ذلك الصوت الرّخيم.

بالأمس لمستُ نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح

بليغة وددت تقبيلها بشفتي روحي ، وما أطبقت الكتاب إلاّ وأنا ألثم بناني على غير هدى . ولم يكن ذلك إلاّ إجلالاً لصفحات قلبتها وحبّاً لنفس استجوبتها فعرفتها .

فيا من « ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها » ، أيّتها الباحثة الحكيمة ، لماذا تصمتين ؟

تتوالى الأيّام ونحن في ضلال مبين . الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد الدائمة . الرجل تائه في مهامه الأشغال ، فإذا كتب بحث في العموميات ، وإذا جال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائي لأنّه يكتب بفكره ، بأنانيته ، بقساوته . والمرأة تحيا بقلبها ، بعواطفها ، بحبّها .

علاتنا مستعصية لا يشفيها إلاّ طبيب يعرفها . والمرأة بعلّة جنسها أدرى فهي تستطيع معالجتها . ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلاّ ما يصوره لهنّ الخيال المخيم بطلانه على منابت العواطف المخصبة . هذا اعتراف ساذج صادق : الفتيات لا يداعبن القلم إلاّ لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم يُرَ فيها من الاستفهام شيء .

لكن الزوجة والأم التي أُعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قويّاً تدرك بواسطته كلّ ما في الحياة من حلاوة ومرارة ، تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي ،

وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصيّة المتألّمة ، شخصيّة المرأة وشخصيّة الرجل .

فيا سيّدتي ،

لدينا قلوب تحترق ولا ندري أيّ نار تحرقها ، وتلتهب شغفاً بما لا تعرف ماهيته ، فعلّمينا أنت التي كنت فتاة قبل أن تكوني أمّاً كيف نرشدها وإلى أين نوجّهها !

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة ، فأرشدينا أيّ الأعشاب فاسد فنقتلعه وأيّها صالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان .

قولي يا سيّدتي ، تكلّمي !

ضمّي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هوّة الحيرة والتردّد . ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح كصوتك ، قد يفعل في النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار .

لا يهمّنا أن تخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك ، وأن تحجبي هيئتك الشرقيّة وراء نقابك الشعري ، ما دمنا نسمع صوتك في صرير قلمك ونعرف منك الروح العالية .

فهنيئاً لوطن يضمّ بين أبنائه مثيلاتك ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتساماتك ويسكبون حياتهم في قالب حياتك .

مي

إلى جبران

في ١٥ يناير سنة ١٩٢٤

. . . جبران ! لقد كتبت كلّ هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحبّ . إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحبّ ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمي الحبّ في أعماقهم قوّة ديناميتيّة رهيبة ، قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السطحي لأنّهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجّر ولكنّهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنّوها لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهّي بما لا علاقة له بالعاطفة . يفضلون أي غربة وأيّ شقاء — وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟ — على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إنّي لا أعرف ماذا أعني به . ولكنّي أعرف أنّك محبوبي وانّي أخاف الحبّ . إنّي أنتظر من الحبّ كثيراً فأخاف أن لا يأتيني بكلّ ما أنتظر . أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحبّ كثير . الجفاف والقحط واللاشيء بالحبّ خير من النزر اليسير . كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا ، وكيف أفرط فيه ؟ لا أدري . الحمد لله أنّي أكتبه على الورق ولا أتلفّظ به ، لأنّك لو كنت الآن

حاضراً بالجسد لهربتُ خجلاً بعد هذا الكلام ولاختفيتُ زمناً طويلاً ، فما أدعك تراني إلاّ بعد أن تنسى .

. . . حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً ، لأنّي بها حرّة كلّ هذه الحريّة . . . أتذكر قول القدماء من الشرقيّين : إنّه خير للبنت أن لا تقرأ ولا تكتب ؟ إن القديس توما يظهر هنا . وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء أبعد من الوراثة . ما هو؟ قل لي أنت ما هو هذا . وقل لي ما إذا كنتُ على ضلال أو هدى ، فإنّي أثق بك وأصدق بالبداهة كلّ ما تقول. وسواء أكنت مخطئة أو غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك، وخير ما يفعل هو أن يظلّ حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك .

. . . غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان ، حصحصت نجمة لامعة واحدة ، هي الزّهَرة إلاهة الحبّ . أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبّون ويتشوّقون ؟ ربّما وجد فيها من هي مثلي ، لها واحد جبران ، حلو بعيد هو القريب القريب ، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلام ، وأن اللّيل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع اللّيل مرّات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه فتتسرّب إليها كلّ وحشة الشفق وكلّ وحشة اللّيل فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد: جبران .

ماري زياده

إلى نسيبها الدكتور جوزف زياده

القاهرة في ٢٨ أيلول سنة ١٩٣٥

عزيزي جوزف

منذ مدّة طويلة لم أعد أكتب . وكلّما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي .

. . . إنّي أتعذّب شديد العذاب يا جوزف ، ولا أدري السبب ، فأنا أكثر من مريضة ، وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسّه فيّ وحولي . إنّي لم أتألّم أبداً في حياتي كما أتألّم اليوم ، ولم أقرأ في كتاب من الكتب أن في طاقة بشري أن يتحمّل ما أتحمّل . وددت لو علمت السبب على الأقل . ولكني لم أسأل أحداً إلاّ وكان جوابه : لا شيء ، إنّه وهم شعري تمكّن مني .

لا ، لا ، يا جوزف . إن هناك أمراً يمزّق أحشائي ويميتني في كلّ يوم ، بل في كلّ دقيقة .

. . . لقد تراكمت عليّ المصائب في السنوات الأخيرة وانقضّت على وحدتي الرهيبة – التي هي معنويّة أكثر منها جسديّة – فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذاباً كهذا . وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبي ووحدتي

الشعريّة ، فكنت أعمل وأعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلّي أنسى فراغ مسكني ، أنسى غصّة نفسي ، بل أنسى كلّ ذاتي .

... إنّه ليدهشني حقّاً كيف أنّي استطعت أن أكتب هذه الرقيمة . ولعلّ الفضل في هذا يعود جزئيّاً إلى اللفائف التي أدخنها ليل نهار — أنا التي لا عهد لي بذلك — أدخنها لتضعف قلبي ، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم . . .

واسلم لابنة عمك

ماري

« ملك ناصف » المرأة

وزعت الآنسة مي كتابها عن ملك حفني ناصف (باحثة البادية) على فصول : المرأة ، المسلمة ، المصرية ، الكاتبة ، الناقدة ، المصلحة . وعقدت مقارنة بين جهود السيدة ملك وجهود قاسم أمين في حقل تحرير المرأة ، فكانت هذه الدراسة الأولى من نوعها في ذلك الزمن (١٩٢٠) ، وأصبحت طريقة مي في هذه مثالا يتبع في التحدث عن الراحلين .

نقتطف هنا الفصل الذي تتحدث به عن باحثة البادية المرأة :

إن في بعض الناس قوةً لا تكيّفها النعوت . ليست هي الذكاء وإن كان الذكاء بدونها بلادة ، ولا الجمال وإن عدم الجمالُ ميزةَ التأثير بفقدانها . ولا هي توازن تراكيب الجسم وتناسب الأعضاء ونضارة الصحة وكلّ هذه تافهة إذا حُرمتْ منها لأنّها العنصر الخفيّ المحيي الذي ينفعلُ به الأقوام ويخضعون لسطوته مريدين كانوا أم غير مريدين . لقد دعي ذلك العنصر مغنطيساً ، وكهرباء ، وجاذبية ، ولطفاً ، وخفة دم ، وخفة روح ، و « نغاشة » . ولكنّ جميع هذه المعاني ليست إلاّ أجزاء منهُ وتشترك معها في تأليفه معانٍ أخرى شتّى .

إنّها لقوة عجيبة قد تحوّل ما هو في عرف البشر قباحة إلى جمال فتان : فهي بروق الذّكاء المتألقة في العيون وسيال اللطف المتدفّق في الابتسام وأغنية الرّوح المتماوجة في نغمة الصوت . هي سحر الحركة ، وهي وسم الامتياز ، وهي جلال الهيبة ، وهي قداسة السكوت . هي المقياس السريّ الذي يكيّف الإشارة ويوقع الخطى ، والشرارة التي تضرم نار الفكر ، والنور الذي يجعلُ كثافة المادة شفّافة . هي اليدُ العلوية التي إذا حلّتْ لسان المتكلم كان بليغاً ، وإذا أشارت إلى الناظر بدت نظرته عميقةً ، وإذا قادت قلم الكاتب كانت كلماته شائقةً فعّالة يبقى صداها داوياً في أعماق النفوس .

وكلّ من عرف باحثة البادية شخصيّاً أي معرفة الجسد أو معنويّاً أي معرفة القلم ، علم أنّها كانت حائزة لهذه القوة التي حارت في تعريفها الأسماء . قد كان يكفي أن يعرفها المرء ليشعر بانجذاب إليها وليحبها . وقد كان يكفي أن يقرأ إحدى مقالاتها ليرغب في مطالعة كل ما كتبت منفعلاً على رغم منه بالنّفَس الحارّ المالىء فصولها حتّى لقد يتبيّن توهّج اللهيب المعنويّ بين سواد الحروف . عبثاً تبحث هنالك عن الكاتب الذي يعلو بك إلى قمم الإدراك والعرفان ويبتدع لك من روحه جناحين تطير بهما إلى الآفاق البعيدة . إن مؤلّفة

« النسائيات » قانعة بالغرفة التي تسكنها ، والحي الذي تسير بين منازله ، والبيئة التي هي جزءٌ منها . وحينما تعثر على ما لا يرضيها — وما أقلّ ما يرضيها ! — تضرب بمؤلفات الباحثين وشروح العلماء عرض الحائط غير معتمدة إلاّ على ما تختبره بالمشاهدة . وسرعان ما تقابل بين ما تراه عند الغير وما يُشبهه ممّا طرأ عليها أو قد يكون مهدداً حياتها . هي عين ترى ما هو كائن فتذكر ما يجب أن يكون . على أنّ هذه العين لا تنسى لحظة أنّها عين امرأة . فما تكاد تلمح خيال اللوعة حتّى يحترق القلب منها لهفاً وتذوب ذراته وجعاً . وإذا طرقتْ موضوعاً تهتزّ له طبيعتها النسائية من أقصاها إلى أقصاها سمعت منها هذه اللهجة الخلابة :

« إنّه لاسم فظيع (تعدّد الزوجات أو الضرائر) تكاد أناملي تقف بالقلم عند كتابته . فهو عدوّ النساء الألد وشيطانهن الفرد . كم قد كسر قلباً وشوّش لبّاً وهدم أسراً وجلب شرّاً . وكم من بريء ذهب ضحيته وسجين كان أصل بليته وإخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا ففرّقهم أيدي سبا وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثأر بني وائل وكانوا لولاه متفقين .

« إنّه لاسم فظيع ممتلىء وحشيّة وأنانيّة . كم أحرج رجلاً وعلّمه الكذب فأفسد عليه خلقه ، وكم بذر مالاً كان يعده البعض رزقه ، وكم أحفظ قلب والد على ولد ، وكم علّم الوشاية والحسد . فإذا ما لهوت أيّها الرجل بعرسك الجديد فتذكّر وراءك بائسةً تصعد الزفرات يتساقط

من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك ولكنّه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً . واخشَ الله في صغار يبكون لبكائها علمتهم الحزن فاستعاروا يواقيت عروسك أعيناً . أنت تقرع سمعك الطبول والمزامير وهم لا يسمعون إلاّ دقّ الحزن في طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين .[١] »

قد ينظم الشاعر هذه الزفرات أبياتاً عامرة ، وقد يطلعك العالم الاجتماعي على سلسلة علله ومعلولاته مثبتاً لك شرّ تعدّد الزوجات . ولكن قلما تجد في قصيدة ذاك وأبحاث هذا تأثيراً يهزّ نفسك كما تفعل هذه السطور القلائل . ليس ما قرأته هنا بمنحدرٍ من الفكر أو بناتج عن الملاحظة والتنقيب . بل هو اضطراب قلب جالت فيه المرارة مكوّنة أنّاتٍ ما لبث القلم أن وقّعهنّ على وفق ضربات القلب الخافق . إن هذه الفقرة لا يكتبها إلاّ قلم امرأة .

* * *

نحن الذين اعتدنا أن نرى في والدتنا سيدة البيت الدائمة وربّة المنزل المطلقة لا نستطيع إدراك ما هي عليه طائفة كبيرة من أخواتنا من الشقاء تحت التهديد المتتابع بالطلاق . ولا يمكننا تفهّم الانفعال الذليل المنحدر بهنّ إلى مهبط الخوف والقلق واضعاً بين المرأة وبين تقديرها لكرامتها واعتبارها

---

١ النسائيات .

لنفسها هوة عميقة . وقد فطن أحد مقرظي « النسائيات » إلى عجز الأمم غير الإسلامية عن إدراك ذلك فلام الباحثة لوماً لطيفاً إذ قال :

لقد صوّرت في ذلك الباب (باب الازدراء بالمرأة) المرأة في نظر الرجل اليوم على نحو ما كانت عليه في الجاهليّة الأولى، وهذا أمر قلّما طابق الواقع ، وهل كان من حرج على السيّدة أن توسع المسألة بحثاً وأن ترقب اليوم الذي تترجم فيه مقالاتها إلى اللغات الأجنبيّة فتنشر أحكامها على هذه الأمّة في العالم الأوروبّي الذي يجهل معنى الغلو البديعي وأنّه من المحسنات في اللغة العربيّة حيث يعتقد الأوروبيون لا سيّما نساؤهم أنّنا اليوم على ما كانت عليه جاهليتنا منذ أربعة عشر قرناً وناهيك بما يحدث هذا القول في العالم المتحضر من الآراء وما يجلبه علينا بعد ذلك من البلاء .[1]

غار حضرة المنتقد على سمعة قومه فأراد أن لا تقال الحقيقة كما هي حتى ولا في فم من لا يبغي إلاّ الإصلاح، ولكن إذا تعمّد كتم ما هو جارٍ وسدل الحجاب على شقاء فئة كبرى فلا يكفي تنبيه الباحثة إلى ذلك بل عليه أن يكسر جميع الأقلام الشاكية وأن يسكت زفرات القلوب المكلومة . عليه أن يثلج دماء الشبيبة الطامعة في توطيد دعائم الأسرة وحفظ كرامة المرأة . عليه أن ينتزع الأفئدة من الصدور لتكف عن الشعور

---

١ انظر باب التقاريظ في آخر « النسائيات » .

بلوعة التقهقر العائلي . نعم ليكسر الأقلام ، وليمزق الطروس ، وليسلّ الألسنة ليجهل الغرب علّة دامية في الشرق . أما باحثة البادية فلم تفكر قط في ذلك بل أثبتت الواقع بصراحة ناشدة الإصلاح فقالت :

« أي ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرّق بينهما وتشتّت ملتئمهما ؟ وأي أمل لها في مستقبل مظلم لا تدري متى ينهار بنيانه ؟ إن الدين لا يسمح بتعدّد الزوجات وبالطلاق هكذا على غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وإنّما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتّبعت لما أنّ منها النساء البائسات .[1] »

أين « الغلو البديعي » الذي يشكو منه هنا الأستاذ المنتقد ؟ أين « الغلو البديعي » في ما تقرّره الباحثة من ازدراء الشرقيين ، مسلمين كانوا أم مسيحيين ، بالبنت في جميع أدوار حياتها وتفضيل الصبي عليها قبل ولادته وبعدها ؟ وأين ذلك « الغلو » من مسألة الطلاق كما هو شائع الآن ؟

نعم إن سهولة الطلاق كادت تلغى من الطبقة العليا ويندر وجودها بين من يغارون على سمعتهم ويفهمون معنى احترام الأسرة من الطبقة الوسطى . ولكن هؤلاء هم الأقلية . والطلاق شائع عند الأكثرية شيوعاً كبيراً . وهاك ما كتبته

---

١ النسائيات .

باحثة البادية بعد الاختبار الشخصي :

« وهذه البادية التي أقطن لا أبالغ إن قلت إن جميع نسائها جرّبن الضرائر. طالما سألت امرأة الحي هذا السؤال : « ترين هل تحبّين زوجك الآن كما كنت تحبّينه قبل زواجه من غيرك ؟ » فكان جواب كلّ من سألت سلباً . وسمعت عن أخريات أنّهن يفضلن أن يرين نعش أزواجهن محمولاً على الأعناق من أن يرينهم متزوّجين بأخريات . فيا لله ! أإلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرّة ! [1] »

إن هذا الموضوع يفتح باب الفصاحة عندها . وإذا قالت حيناً بوجوب الطلاق فما ذلك إلاّ لأنّها ترى فيه ما يخفف شقاء المرأة . قالت :

« والطلاق على مذهبي أسهل وقعاً وأخفّ ألماً من الضر . فالأوّل شقاء وحريّة والثاني شقاء وتقييد . فإذا كان الشقاء واقعاً على كلّ حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدّة ترى بعينها ما يلهب قلبها ويدمي محجريها ؟ ألا إن حزيناً حرّاً خير من حزين أسير ! وبعضهم يخادع المرأة الأولى بأن يجعلها حاكمة على البيت معها مفاتيح خزائنه . ولكن ماذا تفيد مفاتيح الخزائن والحكم على السمن والعسل وأين هذه من مفاتيح القلوب وحبّ الزوج ؟ [2] »

ألا يخيّل إليك أن هذا الرّجل الذي يدور على زوجاته

---

١ و ٢ النسائيات .

وفي يده حزمة مفاتيح يفرّقها لهو من رجال القمر أو سكان المريخ ، أو على الأقل من أشباح الأقاصيص والأساطير ؟ ولكن لا ! إن ذلك مع الأسف واقع على مقربة منا . ومن أخواتنا من هنّ ذكيات الفؤاد جميلاتُ الوجه والنّفس لطيفاتُ الشعور شريفاتُ الميول ، وعليهنّ أن يحتملنه وأن يصبرن على مضضه لأنّه أمرٌ داخل في عادات قومهن !

إنّ باحثة البادية لا ينضبُ ينبوع إجادتها في هذا الموضوع ، وما أكثر ما تصيب في نقده مستخرجة منه دروساً أخلاقية كقولها :

« تعدّد الزوجات مفسدة للرجل . مفسدة للمال . مفسدة للأخلاق . مفسدة للأولاد . مفسدة لقلوب النساء . والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الأهل والعشراء .[1] »

ثم تشرح كلاًّ من هذه شرحاً وافياً في مقال هو من أجمل ما كتبتْ . بل هو في تقديري أتم فصولها وأبدعها .

* * *

على أنّ مطالبها لا تتوقف عند قلة الضرائر والتفرد في المنزل . بل هي تنكر زواج هذا العصر القائم على الطمع وحب المال وتتطلّع إلى تلاؤم الأذواق والتفاهم المعنوي . اقرأ هذا

---

١ النسائيات .

التهكم الممزوج بالغيظ :

« إذا اجتمعوا (المصريون) بسائحة إفرنجيّة أو امرأة غربيّة تلطفوا لها كثيراً فساعدوها في النزول من عربتها وأمسكوا لها حقيبتها ورفعوا الطرابيش إجلالاً لها في حين أن أحدهم يستنكف الركوب مع امرأته في عربة واحدة . وإذا سافرت أو انتقلت إلى محلّ آخر تركها ونفسها كأنّه لم يكن صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة . وإذا ازدحمت الطرقات في موكب أو مولد مثلاً رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنّه زحام الحشر . فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا ؟[1] »

كتبت هذه السطور منذ سنوات عشر . وإذا بقي هذا الوصف منطبقاً في يومنا على جمهور من الرّجال فإنّ هناك عدداً كبيراً من الطبقتين العليا والوسطى قد تغيّرت منهم العادات تحت تأثير المدنية ، وفعل السفر إلى أوروبا ومشهد الوحدة العائلية (ولو في الظاهر فقط) عند الغربيين ، فصاروا يركبون مع زوجاتهم وبناتهم ويرافقونهن في السفر والنزهة . فكثيراً ما يُرى الآن الرّجل المصري في مركبة أو سيارة وبقربه زوجته ونقابها الأبيض الشفاف يضاعف جمالها الشرقي . ولا يندر ذلك على طريق الجيزة والأهرام وفي الجزيرة حيث يكثر الازدحام أيام الجمع والآحاد خصوصاً ، وفي الأعياد

١ النسائيات .

والمواسم الكبرى .

ولئن حملت كاتبتنا على الرّجل بلا مجاملة فهي لا توفّر المرأة على أنّها تعطف عليها غالباً حتى في خطإها وعثرتها . وتلوم الرّجل لأنّه القويّ ومنه تنتظر المساعدة والقدوة الحسنى . وبدلاً من أن يستبدّ بسطوته فيصير سيداً رهيباً هي تريد أن يستسلم لعوامل الحنان فيصبح صديقاً مؤدّباً . قالت :

« في اعتقادي أن الرجل لو خفّف قليلاً من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم لا معاملة السيّد للعبد، لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه ولأطاعته حبّاً به لا خوفاً منه. فبنات العصر الحالي حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات . فأصبحن لا ترضيهن الكسوة والطعام فقط كإحدى خدم المنزل ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية أكثر من ذي قبل ويعلمن أنّه إذا لم يكن الحبّ أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما .[1] »

الحمد لله ! لقد آن لهنّ أن يفهمن ذلك ولو تجرّعن في سبيله من العلقم كؤوساً ! أليس أفضل للمرء أن يسير نحو إدراك المعاني واستكناه الحياة ولو مخطئاً ضالاً من أن يظل مستكنّاً في ليل الذّل ، راضياً بقيوده ، قانعاً بجهله وهو يحسبه عقلاً وطول أناة ؟ إنّما المرأة في موقف الاستعباد

١ النسائيات .

دون الجوامد حسّاً لأن هذه تستعمل أقصى ما عندها من قابلية الحس ، أما المرأة فإن لم تجاهد في تهذيب ما عندها من الملكات كانت قاتلة قواها بيدها . والقوة التي تتبعثر مؤدّية إلى الفوضى إن لم تعرف لنفسها قانوناً هي ذاتها إذا دربّت كانت عنصر الارتقاء الرفيع . ولئن عزّ السيرُ بانتظام بعد ليل العبودية الدامس لأن العين التي اعتادت الظلام يبهرها الضياء في بادىء الأمر ، لكنها لا تلبث أن تألفه فتتمتع به لاجمةً فوضاها مُصلحة أحوالها . ليس هذا رأي الباحثة . وسننظر في ما تشير به يوم ندرسها مُصلحة . غير أنّها لا تنفكّ عن العودة إلى شعور المرأة ليعتدّ به الرجل ويجعله مقياساً لأعماله وأقواله . فقد تختلف عندها ألفاظ الشكوى غير أن معنى الأنين ثابت لا يتغير . كلّ شيء في نظرها أفضل من « إيلام نفس المرأة وتنغيص حياتها . يا لله ! أليس لها من قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثور ؟ »

* * *

هي امرأة بكل معنى الكلمة . ومن دلائل ذلك أنّها تبدي يوماً خلاصة ما يجول في نفسها وتضطرب له جوانحها ثم يشبُّ فكرها في يوم آخر فتثبت عكس ما جاءت به قبلاً على خطّ مستقيم . فهل هي مناقضة ذاتها ؟ كلاّ ! بل هي مفصحةٌ عن نفس كثيرة النزعات جمة الميول كأنّما هي جوهرة ذات

أكثر ممّا يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس. تقولين إنّه: «النار التي تطهر». حقيقةً. إنّه تلقى وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صيّره شفافاً يظهر كلّ شيء ويتأثّر لأقلّ شيء وهذا فيه من الضنى ما فيه. تقررين أنّه «النّار التي تحيي». نعم إنّه أحيا روحي حتى أحرقها لأنّه كان كمصباح سيال كهرباؤه شديدة ولكن فتيلته لا تحتمل. «هو النّار التي تلين». هذا ما أبديت ولكن ألا تعتقدين أن اللّين يؤذي خصوصاً في هذه الدنيا التي كلّها صدام وعراك وأنّه لا يفل الحديد إلاّ الحديد؟ إنّه ألانني حتى صيّرني ماء، وما أشدّ عبث الطبيعة والنّاس بالماء مع أنّه أصل الحياة! وختمت حسن تعليلك لعذابي بقولك إنّه «النّار التي ترفع النّفس على أجنحة اللّهيب إلى سماء المعاني السامية». نعم إنّني الآن على أجنحة اللّهيب ولكنّني لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني.[1]»

يومئذ حسبت هذه الجملة الأخيرة زهرة من زهرات البيان ولم أكن أدري أنّها نبوءة فما تلقّيتها إلاّ اليوم بالتصديق فجاء تصديقي متأخراً! لقد وصلت الآن إلى «السماء» فماذا وجدت هنالك حيث احتجبت عن أبصار البشر متفرّغة لاستقبال وجه البقاء؟ إنّها أردفت الفقرة السابقة بهذه الجملة:

«فهل يا ترى ستعجبني السماء؟ إني أشك في ذلك».

أما أنا فأعلم أنّها هي التي كانت ذات قابلية للتكيّف بقالب

---

١ «بين كاتبتين» نشرت في المحروسة.

الأحوال المارّة لم تكن راضية عن « الأرض »، وسخطها على هذه الكرة هو الذي جعلها تشك في هل « ستعجبها السماء ». لقد كانت كجميع ذوي المزاج العصبي، والعصبي الصفراوي، المستسلمين للكآبة، شديدة الشعور مع ميل إلى الحزن. وقد قوّى ذلك فيها تأثير المطالعة واعترفت به حيث قالت: « أول ما حفظت من الشعر المراثي وأولها رثاء الأندلس. وكنت في حداثتي أقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بنفسه الكبيرة وأظنه هو الذي أعداني في ذلك وسمم آرائي. رحمه الله! إني ألذّ كثيراً بهذه العدوى »[1].

وقد تكون مدينة له كذلك ببعض الحكم المنشورة في فصولها كهذه مثلاً، فالتجربة أرشد معلّم والليل والنّهار كفيلان بتأديب من لا مؤدّب له[2].

* * *

من الأدوار الثلاثة المهمة التي تستغرق حياة المرأة أي أدوار البنوّة والزوجية والأمومة كانت تحت تأثير الدور الثاني يوم كتبت « النسائيات » لخروجها من دور البنوة الصرف. ولما لم ترزق ولداً ينال نصيبه من عنايتها فقد ظلّ اهتمامها محصوراً في موقف الزوجة ومركزها في العائلة والأمة. نعم

---

١ « بين كاتبتين » نشرت في المحروسة.

٢ « المصريات ومزية التوفير » نشرت في الجريدة.

إنّها بحثت في جميع أدوار المرأة المصرية من الطفولة إلى الشيخوخة ولكنها كانت بالزوجية أكثر اهتماماً منها بأي دور نسائي غيره . أما في أحاديثها فكانت تكثر من ذكر أبيها وقرينها ممّا يدلّ على مقدار احترامها لهما وتعلّقها بهما .

زرتُها مرة وسيدة إنجليزية فوجدنا صالونها مملوءاً بالزائرات المسلمات من والدات وفتيات ودارت بينهنّ مناقشة في ما إذا وقع خلاف بين أبي المرأة وزوجها فأيهما تتبع . فكثرت الأقوال واحتدم الجدال إلى أن قالت شابة عروس عام : « مات أبي منذ سنوات خمس فحزنت عليه حزناً شديداً وما زلت أبكيه إلى يومي هذا . ولكن إذا مات زوجي أموت معه ولن أعيش بعده لحظة لأبكيه » . فاعترضت والدة هذه السيدة بلهجة جعلتني أظن أن بينها وبين صهرها سوء تفاهم في أمرٍ من الأمور ، وأنّها تودّ استمالة ابنتها إليها . لكن باحثة البادية دخلت بينهما قائلة بلهجة جمعت بين الجد والمزاح : « مكثت في دار أبي عشرين سنة ولما تمّ لي هذه المدة عند زوجي . . . » فقاطعها هنا بعض الزائرات قائلات : « ما هذا ؟ أتجعلين طول الإقامة ميزاناً للحب ! »

قلت إنّ باحثة البادية امرأة بكل معنى الكلمة ، فهي لا تريد أن يعرف الجميع خفايا ضميرها ولا تريد أن تجرح زائراتها . وقد كان لديها مع قلمها (الذي كان صريره

يشبه أحياناً وخز حربة صغيرة غُمست في مداد إنّما هو مزيج من مرارة ولهيب) سلاحٌ آخر نسائي محض ، وهو الضحك ، وما يتقدمه من نظرات لطيفات المعاني وما ينتج عنه من إرضاء الجميع دون إغضاب أحد ، والتخلّص من المواقف الحرجة بمهارة وبساطة .

لو قالت « تتبع المرأة زوجها » لغضبت الأمهات . ولو قالت « تتبع والدها » لسخط الأخريات . فلم تقل هذا ولا ذاك بل ضحكت في وسط الضوضاء والاحتجاج والاعتراض ضحكة فضية كرنين البلور على البلور ، أعقبتها بنكتة صغيرة أقفلت باب الموضوع وأرغمت جميع الحاضرات على الاشتراك في الضحك . وما كان أجمل ضحكة ثغرها بينا شفتاها القرمزيتان تتلامسان بألفاظ مصرية التركيب واللهجة والمعنى !

المختارات

كلمة الناشر

أدب ميّ زيادة هو كأدب جورج إيليوت ، وجورج صاند ، ومدام دوستال ، بأناقته وأنوثته ، ناهيك بألوانه الحضارية التي نضحت من شخصيتها ذات الثقافات المنوعة . فقد قيّض لميّ ان تتقن تسع لغات هي : العربية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والألمانية ، والإيطالية ، والإسبانية ، واللاتينية ، واليونانية ، والسريانية . وقد ألمحت الى هذا التنوّع في ثقافاتها الذي يرمز إلى اتساع حدود وطنها الذي هو وطن الانسان : « ... ولعلّ معرفتي لتسع لغاتٍ زادت في حدود وطنيتي ، وجعلتني أنظر الى العالم كأنه وطني الأكبر . ولعلّ أيضاً سياحتي في أوروبا قد زادت في نفسي هذه العقلية » .

من هنا انطلقت ميّ لتثبت أمام المجتمع الشرقي جدارة المرأة التي هي منه سواء في المقالات التي نشرت أو الخطابات والمحاضرات التي ألقت ، أو في منتداها الأدبي الذي حاورت فيه وناقشت كبار أدباء عصرها : يعقوب صرّوف ، منصور فهمي ، عباس العقاد ، أنطون الجميّل ، شبلي الشميل ، أحمد شوقي ، مصطفى الرافعي ، ولي الدين يكن ، خليل مطران ، إسماعيل صبري ...

(من مقدمة سيمون عواد)